متى تنجلي مشكلة العالم البشري وإلى أين منتهاها؟!

سماحة الشيخ العلّامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

الكلمة الطيبة

جميع الحقوق محفوظة

مسقط ـ سلطنة عُمان

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م

تتشـــرف الكلمة الطيبة المتخصصة في النتاج العلمي لســـماحة العلامة الجليل الوالد الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان

AhmedHAlKhalili@

بتقديم هذه الطبعة التفاعلية الخاصة بأجهزة الحاسوب والأجهزة الذكية من هذا المقال القيّم، فما على القارئ سوى الضغط على العنوان في **الفهرس** ليصل تلقائيًا إلى الموضوع، والعودة **للفهرس** مجددًا بالضغط على كلمة: **المحتويات** الموجودة أسفل كل صفحة.

تنبيه:

يجب تحميل تطبيق Adobe Acrobat Reader للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويـات

مقدمـة ٥
عجز الإنسان عن الوصول إلى هذه الحقائق إلا ببينة من الله ١٠
دين الله الحق هو صمام الأمان ١٧
الدين ضرورة ملحة تمليها الفطرة ويرشد إليها العقل ١٩
عجز الحضارات والفلسفات عن إضفاء الأمن على حياة الإنسان ٣٧
الغرب والدين ٤٧
تعدد الزواج عند الرجل ومسوغاته الشرعية ٧٨
التعدد مشروط في الإسلام بالعدل بينهن جميعًا ٩١
هل تعد حضارة تفرز هذه الأقذار جديرة بأن تتبع ويوالى أهلها؟! ٩٤
نداء إلى كل ذي ضمير حي ٩٧
أ ـ أولياء أمور المسلمين الذين استخلفهم الله في الأرض ومهد لهم البلاد وطوع لهم العباد لينظر كيف يعملون ١٠٤
ب ـ الآباء والأمهات ١١٠
جـ ـ المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية ١٤٥
د ـ المرشدون والموجهون من الفقهاء والوعاظ وخطباء المنابر وأئمة المساجد ١٤٦
آيات من عذاب الله أصاب بعض الغربيين فيها موعظة وذكرى ١٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ الأعراف: ٤٣

والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وبعثه فيهم نذيرًا وبشيرًا ليقودهم إلى السلامة في الدنيا والفوز والسعادة في الآخرة، وعلى آله وصحبه الذين كانوا معالم الهداية ومنابع العرفان وأوتاد الأمان بين الناس أجمعين، وبعد:

فما زالت الإنسانية تعاني منذ وجودها على هذا الكوكب المظلم من ضروب من المآسي، وتواجه ألوانًا من التحديات، وتكابد جحافل من الشر،

وما كانت مأساتها إلا من صنع أيديها ولا شرورها إلا آثـارًا لطغيانها، فهـي التي صنعـت التحديات التي تكابدها، فقد خلقها الله تعالى سوية ووهب لها العقل وميزها بنفاذ الإدراك وقوة الإرادة، وفوق كل ذلك منّ عليها بهداية الدين، فأنار لها السبيل وأبان لها الحقيقة ووصلها بنظام الكون، ولكن أبى عليها جماح طبعها ـ وما يتفاعل فـي كيانها من نزعـات ونزغات ـ أن تستقيم على الفطرة، وأن تستجيب لإلهام الدين، وأن تتفاعل مـع الحق، وأن تراعـي مصلحتها، فأضاعت الرشـد، ووطئت على قداسـة الحق، وتمردت على الفطـرة، وهي بـكل ذلـك خرجت عـن طاعة الله، وتجاهلـت سـلطانه وتعامت عـن آياتـه وتجلياته وتصاممت عن بشائره ونذره، حتى بلغ بها اجتراؤها عليه إلى جحد وجوده وإنكار سلطانه والتعدي على حرماته، وعدم المبالاة بدينه وشرائعه، مع أن كل ذرة في الكون هي سفر حافل بآياته الدالة عليه، وينبعث منها في كل ثانيـة من الزمن ما لا يحصـى عدًا من

الأصـــوات المنادية بحجتـــه وبراهينـــه الدامغة لكل ضلالة الماحقة لكل شبهة.

وبســـبب انحســـار تقديس الله تعالى وتعظيمه من نفوس هؤلاء ـ تجاهلًا للفطرة، وتعاميًا عن شواهدها العظيمة التـــي تنتصب معالم بـــارزة في كل موجود، وتصاممًا عـــن أصواتها التي تصخ أســـماع العالمين معلنة افتقار كل موجود إلى واجـــب الوجود لذاته ـ تجرأ من تجرأ على إنكار الذات الإلهية فشاع الإلحاد وانتشرت الإباحية وانعدم الوازع الذي يكبح النفوس عن الشـــر، إلا ممن هدى الله ووفقهم للتمسك بدينه واتباع هداه، وبســـبب تجاهل أكثر النـــاس لدعوات الرســـل وإعراضهم عن الحق أرضوا فطرهم باعتناق ديانات صنعوها بأنفسهم وصاغوها وفق هواهم، فلم يكن لها تأثيـــر في الســـيطرة علـــى أهوائهم وضبط حركاتهم وبســـبب ذلك عمت الفوضى وفقد النظام، وفشا الظلم والعدوان بين الناس، وتحطمت منظومة الأخـــلاق، فانحدر الإنســـان الذي خلقـــه الله ليكون

خليفة في الأرض، وسيدًا في الوجود إلى الدركات الدنيا من الإباحية.

وهذا كله يرجع إلى إبعاد الله تعالى ودينه الحق وشرعه العادل عن الحكم، وعن رد شأن الإنسان ومشكلاته إليه تعالى، فقد علم من أحوال المصانع والصنع أن كل صنعة إنما يرجع في إصلاحها إن تعطلت وفي نظام تشغيلها إلى المصنع الذي أنتجها، والإنسان إنما هو صنعة الله تعالى فما كان لغير الله سبحانه أن يُقوِّم اعوجاجه أو يصلح فساده أو يهذب من طباعه، إذ لم يكن لغيره تعالى أن يصل إلى أعماق الطبيعة الإنسانية في تكوينها، وإنما الله وحده هو الذي أحاط بما في طبيعة الإنسان من دقائق صنعته ووسع علمه كل ما اشتملت عليه فطرته، وكل من يندرج في تضاعيف طبعه؛ لأنه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وأبرزه من الغيب إلى الشهود، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤، ومع ذلك أحاط علمه تعالى بكل ما في تضاعيف

هذا الوجود من أسرار الملك والملكوت، والشهادة والغيب، وما في أعماق الخفايـــا التي لا يصل إلى علمها أي مخلوق، وقد جاء توجيهه للإنسان موائمًا لعلاقته بالكون ومواكبًا لمـــا يقتضيه تعامله معه في اختياره واضطراره بحيث لا يشـــذ عن النظام الكلي قيد شعرة.

عجز الإنسان عن الوصول إلى هذه الحقائق إلا ببينة من الله

أنى للإنسان ـ إن لم يكن على بصيرة من ربه وبينة من أمره ـ أن يرود هذه المجاهل ويغوص في هذه الأعماق التي لا حد لها ولا قعر، فلذلك عندما ابتعد عن الله تعالى واستكفى بهواه عن توجيهه سبحانه ظل متخبطًا في أمره، تائهًا في حركته، لا يتصور قبيله من دبيره ولا يميز بين نفعه وضره، ولم يكن له في حياته هدف ولا لمبتغاه غاية يحددها، بل تعقدت مشكلته وغاب عنه كل تصور، فهو لا يدري من أين جاء ولا إلى أين ينتهي، ولا يعرف لماذا كان مجيئه إلى هذا الوجود، ولا يتصور مبدأه ومصيره ولا يدرك ما هي وظيفته في هذه الحياة، وهل هو فيها مقيد أو طليق، بل الحياة كلها والوجود بما اشتمل عليه في نظره لغز معمى لا يزيده التفكير فيه إلا عمى وحيرة، ومهما كانت مكابرة الإنسان عندما

يقــع له ذلــك لمــا يعتمــل في نفســه مــن الحيرة والاضطراب في هــذا، تظل تصرفاته تنــم عن واقعه وتجلي خفاياه، وقد يضيق بأمره فينفجر بالإعراب عن حقيقــة أمره ومــدى حيرتــه، كما صاغ أحــد هؤلاء الحائرين أحاسيسه هذه في بيانه الذي جاء فيه:

لست أدري!

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت

ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت

وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنّى أنّني أدري ولكن...

لست أدري!

وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟

هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور

أأنا السّائر في الدّرب أم الدّرب يسير

أم كلانّا واقف والدّهر يجري؟

لست أدري!

ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمين

أتراني كنت أدري أنّني فيه دفين

وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكون

أم تراني كنت لا أدرك شيئًا؟

لست أدري!

أتراني قبلما أصبحت إنسانًا سويًّا

أتراني كنت محوا أم تراني كنت شيًّا

ألهذا اللّغو حلّ أم سيبقى أبديًّا

لست أدري... ولماذا لست أدري؟

لست أدري!

البحر:

قد سألت البحر يومًا هل أنا يا بحر منكا؟

هل صحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا؟

أم ترى ما زعموا زورا وبهتانا وإفكا؟

ضحكت أمواجه مني وقالت:

لست أدري!

أيّها البحر، أتدري كم مضت ألف عليكا

وهل الشّاطىء يدري أنّه جاث لديكا

وهل الأنهار تدري أنّها منك إليكا

ما الذّي الأمواج قالت حين ثارت؟

لست أدري!

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك

أنت مثلي أيّها الجبار لا تملك أمرك

أشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك

فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟..

لست أدري!

ترسل السّحب فتسقي أرضنا والشّجرا

قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثّمرا

وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا

أصواب ما زعمنا أم ضلال؟

لست أدري!

قد سألت السّحب في الآفاق هل تذكر رملك

وسألت الشّجر المورق هل يعرف فضلك

وسألت الدّر في الأعناق هل تذكر أصلك

وكأنّي خلتها قالت جميعًا:

لست أدري!

هذه الأحاسيس تنتاب كل من زاغ عن الفطرة وحاد عن الحق وبعد عن الرشد فجهل أو تجاهل خالقه وأنه لا صلاح للإنسان ولا أمن ولا استقرار إلا بحسن معرفته وإجلال قدره وإفراده بالخضوع والعبادة والخلق والأمر وبالرجوع إلى أمره واتباع حكمه والإذعان لطاعته وتحكيم شرعه، لأن الكون كله إنما هو ملكه، والإنسان عبده الذي استخلفه في جزء من هذا الكون وسخر له منافعه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فلا سعادة له ولا أمن ولا استقرار ولا سلام ولا طمأنينة ولا انسجام ولا وئام إلا بالاستظلال بمظلة دينه والإيواء إلى حمى حكمه، والاعتصام بحبله المتين واتباع نوره المبين وسلوك صراطه المستقيم.

ولكن أنى ذلك للإنسان في هذا العالم الذي تتقاسمه الأهواء، وتتفرق به السبل، وتتحكم فيه النزعات والنزغات، فقد أصبح الإنسان فيه تائهًا لا ينقاد إلا لهواه ولا يستأسر إلا لشهواته، وقد حمي

بين فئات جنســه وطيس الفتن يذيبهم حرها ويبيدهم ضرامها، وضاعت عنه الحقيقة بيــن ظلمات الأوهام المدلهمة فلم يعد الإنسان معنيا بمعرفة مبدأ أو مصير وتصور لعمل أو جزاء وإنما يســير مع السائرين إلى غاية لا يعلمها، فهو كراكب لا يدري إلى أين تسير به راحلته ولا إلى أي قرار تنتهي به، وقد غرق في بحر الغفلة العــرم، فلا يدور بباله أن يبحــث عن الحقيقة التــي أضاعها ولم يتســع ذهنــه للتفكير فــي مبدئه ومصيره، فقصــارى فكره فيما يتلاطم بــه من بحور الفتن وما يسنح له من فرص اهتبال الشهوات وقضاء مآرب النفس الدنيئة.

دين الله الحق هو صمام الأمان

هذا؛ ومما تقدم يتجلى واضحًا أن حياة الناس لا يحوطها من هذه الشرور ولا يقيها هذا الاضطرابات كالتمسك بدين الله تعالى الحق الذي بعث الله به المرسلين، فتوالى على حمل أمانته وتبليغه للناس جميع رسل الله المصطفين الأخيار، إلى أن أكمله الله تعالى وأتم به النعمة إذ بعث به مسك ختام النبيين وبدر تمام المرسلين محمدًا ﷺ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن الحيرة إلى البصيرة ومن الفوضى إلى النظام ومن الاضطراب إلى الاستقرار، ومن حياة ملؤها الشقاق والفتن والاضطراب والبغضاء والتمزق إلى حياة ملؤها الوفاق والألفة والاستقرار والود والوئام، فتكونت على يديه خير أمة أخرجت للناس، وساد الأمن والاستقرار في حياة الناس، وعرفت الإنسانية قيمتها في موازين الحق ووظيفتها في هذه الحياة، وانحلت

ألغازهـــا فيما يتعلـــق بحياتها ومبدئهـــا ومصيرها، إذ وجدت لكل مشكلة حلًّا ولكل سؤال جوابًا، وتفاعل الواقع مـــع الفطرة فلـــم يعد الإنســـان المؤمن يكابد تناقضًا ونشازًا بين هواجســـه الفطرية وحركاته الفردية أو الاجتماعية.

الدين ضرورة ملحة تمليها الفطرة ويرشد إليها العقل

من المعلوم أن الله خلق الإنسان خلقًا متميزًا، فقد آتاه من المواهب والملكات ما لم يؤته كائنًا آخر من مخلوقاته، ناهيك بموهبة البيان الذي كثيرًا ما امتن الله به عليه، إذ قرنه سبحانه بخلقه في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ الرحمن: ١ ـ ٤، وذكر أنه بسببه ميزه على الملائكة الذين هم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧، وبسبب نجاحه في معرفة أسماء المسميات أثبت لهم استحقاقه لأن يكون خليفة في الأرض، كما حكاه في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

وما ذلك إلا لأن الله أراد أن يسخر له الكائنات فيستفيد منها ويتفاعل معها جذبًا ودفعًا، ويجتلب ما فيها من نفع ويجتنب ما فيها من ضر، ويكيفها وفق مصلحته مراعيًا مزايا فطرته وخصائص طبعها، والملائكة في غنى عن ذلك كله، فلذلك كان الإنسان بحاجة إلى معرفة الأسماء ليتمكن من التمييز بين الأنواع ويقوى على سبر الطبائع ودراسة أوضاعها، وإن من أبرز خصائصه ما فطر عليه من التطور، وما أوتيه من الملكات، فبذلك تمكن من الانتقال من وضع أدنى إلى وضع أرقى، في طبيعة حياته، فبعد أن كان يعتمد على الوسائل الطبيعية البدائية التي تتجسد في أنواع المخلوقات فكان في تنقلاته يمشي على قدميه أو يمتطي ظهور الدواب، أو يمخر عباب

البحر بجريان الفلك التي تسيرها الرياح وتدفعها الأمواج وتمكن من استغلال الطبيعة بعد دراستها فأتقن معرفة الرياح في مواسمها فاستغلها لذلك، فكان في جميع أحواله معتمدا على ما تيسر له، إذا به ينتقل عن ذلك شيئًا فشيئًا، فأخذ يطور وسائله فاستبدل بالفلك التي تجريها الرياح وتدفعها الأمواج بالبواخر التي يسيرها البخار، وأخذ يطورها طورًا فطورًا، مترقيًا بمعارج البحث والخبرات، وأوجد لنفسه وسائل برية مما ابتكره من أنواع القطارات التي بدأت ببساطة وبدائية، ثم أخذت تتطور بعد ذلك حتى غدت تطوي المسافات بسرعة مذهلة، وكذلك المركبات الأخرى التي تتميز بالخصوصية بحيث يمكن للفرد أن يستقل بمركبته منها، كالسيارات التي بدأت بدائية وتطورت بعد ذلك، فكثير من الناس لكل فرد منهم سيارة يحركها إلى أي جهة متى أراد، وتمكن الإنسان أن يشق لها الطرق التي كانت وعرة، فأصبحت معبدة ممهدة تجري فيها

السيارات جريان أسراب الطيور في الفضاء، وغدت تباري الريح في سرعتها.

دعك من المركبات الجوية التي تعبر المسافات التي كانت تقطع في سنوات ـ يتواصل فيها السير ـ في ساعات محدودة، فغدا الإنسان بإمكانه أن يغدو في مشارق الأرض، ويروح في مغاربها فتقاربت الجهات المتنائية وتواصلت الشعوب المتقاطعة، وتيسرت الأسباب المتعذرة إذ أصبح ما كان مستحيلًا في عقول الناس حقيقة واقعة تشاهدها الأعين وتصدقها التجارب حتى أمكن أن تقطف فاكهة بالمشرق وتؤكل بالمغرب أو العكس، كأنها جنيت من أصلها قبل دقائق من غير أن تحتاج إلى وسائل للحفظ.

ومع هذا فوسائل تداول الأخبار وبثها تطورت مع الزمن تطورًا هائلًا، فغدا ما كان مستحيلًا أمرًا واقعًا ليست فيه غرابة، مع أنه ما كان يخطر من قبل بالبال،

فلو ادعاه أحد في القرون الخالية لاتهم أنه إيف بأسوأ أنواع الجنون فلا يفوه إلا بالهذيان، فقد دنا العالم الآن بعضه من بعض بحيث ترى الأحداث تقع في أي بقعة من الأرض فتتناقلها وسائل البث والنشر كأنما هي واقعة أمام كل أحد في أطراف الدنيا بأسرها، يرى مشاهدها بعينيه ويسمع أصواتها بأذنيه، وقد كانت هذه الأخبار فيما غبر من الزمن تحكيها الألسن أو تخطها الأقلام فتتناقلها الأيدي من بلد إلى بلد مجاور، ولا تصل إلا بعد أيام، فكأنما العالم بعد تباعد أطرافه اختزل فغدا كله ساحة واحدة.

وهذا كله يرجع إلى ما ميز الله به الإنسان وآتاه من هباته العظيمة وسخر له من الكائنات ما يفوق كل تصور، وذلك الذي يعنيه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ البقرة: ٢٩، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية: ١٣، فقد فتح الله للإنسان بما اختصه به ـ من تطور العلوم وتنامي المعرفة ـ خزائن الطبيعة فغدا كل شيء منها رافدًا

لحضارته وسلمًا لتطوره، وهكذا القدرات التي ميز الله بها هذا الإنسان ارتقت به في أوج التطور، فلم يقف عند حد، ونحن بإمكاننا أن نعرف ما شاهدناه وعايشناه، ولكننا لسنا قادرين على تصور ما يحدث بعدنا.

وقد كان هذا التطور المعرفي والترقي الحضاري من طبيعة الإنسان وحده، وخصوصياته، فلم يكن من ذلك نصيب لأي كائن حيواني آخر، ولو تفوق على الإنسان في قدراته البدنية وشجاعته وإقدامه وعظم حجمه وثقل وزنه كالفيلة من كائنات البراري والحيتان من كائنات البحار، فالفيل اليوم لا يختلف عن الفيل قبل ألف قرن أو ما يزيد، وكذا الحيتان والأسود والحيات وجميع الحيوانات التي تجري بأقدامها أو تزحف ببطونها أو تمخر عباب البحار أو تطير في أجواء الفضاء.

وما كان الإنسان ليخص بهذا كله إلا لأنه تختلف حياته عن حياة سائر الكائنات، فهي وإن راقت بما

اختص به فيها من التشريف فإنها مثقلة بما حمله من أعباء التكليف وما هذه النعم العظيمة إلا حجج قائمة عليه من الله سبحانه وتعالى بأن عليه كما جعله الله تعالى ما بين هذه الكائنات سيدًا مكينًا أن يكون له عبدًا مطيعًا، وأن لا يقدم ولا يحجم، ولا يحل ولا يعقد، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يسالم ولا يحارب، ولا يمق ولا يقلي إلا بأمر الله تعالى، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وهو معنى الدين، إذ لا يعني إلا الطاعة والانقياد لأمر الله والخضوع المطلق لعزته والتواضع لجبروته والتسليم لحكمه، ووزن كل شيء بموازينه.

فالدين ضرورة ملحة لكبح غرور الإنسان وضبط حركاته وسكناته، وتوجيه نزعاته ونزغاته، وتقييد رغباته وشهواته، وبجانب ذلك فإن طبيعة الإنسان الاجتماعية داعية إلى تحكيم الدين، فالإنسان مدني بطبعه اجتماعي بفطرته، تشد كل فرد من أفراده روابط ترده إلى جنسه إذ لا يستقل فرد بنفسه فيما يتعلق

بشـــئونه، فالفرد مصلحتـــه مرهونة بمصلحة أســـرته، والأســـرة موصولة بنظام مجتمعهـــا، والمجتمع مقيد برباط أمته، والأمة لا تســـتغني عن الجنس البشـــري جميعًا، ومع هـــذا الترابط المصلحي فـــإن التجاذب والتدافع أمران لا بد منهما بالنســـبة إلـــى الأفراد أو الأســـر أو المجتمعات أو الأمم، وهما يدفعان بالكل إلى هاوية الفتن والشقاق والحروب التي لا تبقي ولا تذر، وفي هذه الحالة تغدو جميع المعطيات الحضارية وقودًا لســـعير حرب لا تبقي ولا تـــذر فتكون عوامل خراب بدلًا أن تكون عوامل بناء، وأسباب قطيعة بدلًا من أن تكون أسباب وصال، ووسائل شر مستطير بدلًا من أن تكون وسائل خير عام، إذ لا بد من تأطير كل شـــيء في إطاره الصحيح حتى يغدو نافعًا غير ضار، وذلك ما لا يعلمه إلا الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وله الآخرة والأولى.

فلذلك شـــرع الدين لعباده وأمرهم باتباعه وجعله معقد الترابط بينهم وباعثًـــا على تعاونهم فيما يعنيهم

من المصالح، ولا يمكن بحال أن تكون خبرة الإنسان وتجربته في الحياة مصدرًا للدين، فالدين أهم من ذلك وأعمق من أن تصل إليه الخبرة البشرية أو تتسلط عليهم التجربة، فإن الدين أولا هو صلة بين العباد وربهم سبحانه ولا يحدد هذه الصلة إلا رب العباد الذي له الخلق والأمر، وهو ثانيًا صلة بين الشهادة والغيب، ويدخل في ذلك ارتباط العمل بجزائه واتصال الدنيا بالآخرة، وهو ثالثًا يزن كل شيء بميزانه، ويعطي كل شيء حجمه، ويبوئ كل أمر رتبته، فينزل أعمال العباد منازلها ويخلع عليها أحكامها، فيميز بين الواجب والمحرم، والمندوب والمكروه، والمباح والممنوع، والصحيح والباطل، والمقبول والمرفوض، وهذا ما لا يمكن أبدًا أن يتسلط عليه نظر المخلوق القاصر المحدود، ويستوعبه فهمه وعلمه الكالان العاجزان.

والإنسان ـ وإن كان مشرفًا بمزية العقل، ومفضلًا بها على الحيوانات العجم، التي تشاركه البقاء

والمنفعة في هـذه الحياة، فإن عقله كسـائر طاقاته ـ محدود بمحدوديـة مخلوقيته، ومكبل بأرسـان من طبيعته، فالإنسان من ناحية هو ابن بيئته يستلهم منها تصوراته بحسـب ما تملـي عليه مـن تزيين لبعض الأعمال أو تقبيحها، والبيئات تتفاوت في ذلك كثيرًا، فلو كان الديـن راجعًا إلى العقل لتفـاوت الناس في التشريع بتفاوتهم في الاستحسان والاستقباح بحسب ما يملي عليهم الهوى وتفـرض عليهم المجتمعات، وكم تـرى للعادات من تحكم في هـذا، فقد وجدت بعيني في بعض المجتمعات الإفريقية إذا نشأ الناشئ منهم وبلغ الحلم شُـرِّح جسمه من وجهه إلى قدميه ووشـم جلده كله بأنواع مـن النقـوش، كأنه لوحة يتصرفون في نقشها بأنواع من الرسوم، ولا يبالون بما يصيب هذا المسـكين من التعب والعذاب في خلال تلك الفترة التي تسـتغرقها هذه العملية، وهي لا تقل عادة عن ثلاثة أشـهر، يخفى فيها الناشـئ عن أعين الناس، ثم يخرج إليهم وقد تشـوه جسمه كله بأقبح

ما يمكن أن يتصور، وهم يرون ذلك أحسن زينة، ولا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى وإنما تزاد الأنثى على هذا التشويه والعذاب المشترك بينهما بأن تمطط شفتها العليا وتخلع ثناياها العليا فتخرق الشفة خرقا يتسع لإدخال راجبة أصبع الإبهام فيه، ويضعون فيه حاجزًا يبقى طول حياتها، لئلا يلتحم الخرق، ويعتقدون أن ذلك هو أحسن ما يكون في المرأة من الزينة والجمال وتكون به أحظى عند الرجل..!

فبالله عليكم؛ لو كانت العقول تغني شيئًا أما كانت عقول أولئك تحجزهم عن هذا العمل الكريه، وتمنعهم من تعذيب أفلاذ أكبادهم بهذا العذاب الأليم؟! ولكن ذلك أقوى دليل أن العقل إن لم يكن موصولًا بشرع من الله تعالى لا يهتدي إلى وضع الأشياء في مواضعها، وإنزال الأحكام اللائقة بها عليها، فإن العقل يتأثر بالمحيط البيئي تأثرًا بالغًا، فتجد عند قوم من عشق أشياء هي عند غيرهم من أعظم المكروهات، وقد يقع التفاوت بين ناشئين في

بيئة واحدة، وقد يكونان مشتركين في أبويهما فيختلفان في استحسان الأمر أو استهجانه تفاوتًا يتعذر معه اللقاء، فلو وكل إلى الناس اختيار الدين وتحديد رسومه وضبط أحكامه لما كان بينهم إلا الافتراق الذي لا يعقبه وفاق.

لهذا؛ لم يكل الله تعالى الدين إلى هذه العقول القاصرة المحدودة والأفهام المتبلدة والأنظار التي تحجبها عن الحقيقة حواجز لا يمكنها اختراقها، وإذا كانت العين لا تتوصل إلى المرئيات إن فصلت بينها حجب تمنعها من رؤيتها، وقد يتعذر عليها أن ترى الأشباح إن تباعدت ولو كانت شاخصة كبيرة الأحجام، كما يتعذر عليها أن ترى الدقائق كالميكروبات بسبب صغرها ودقتها، أو أن ترى الرقائق كالرياح بسبب لطفها، فإن العقل تدق عليه أمور أن يتصورها، وتلتبس عليه متشابهات أن يميزها، لذلك كانت ضرورته إلى مدد من شرع الله تعالى يمد طاقته، ويوسع إدراكه ويجنبه الخطأ والزلل.

لذلك توالت رسالات الله تعالى إلى عباده مبصرة لهم بالدين الحق وراسمة لهم صراط الله المستقيم، ومقيمة بينهم لموازين قسطه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ النساء: ١٦٥، وبهذا الدين القيم تزكو الطباع وتتهذب الأنفس وترقى في مدارج الكمال وتسمو بما تتحلى به من كرام الخصال، فيخرج الإنسان من وحشيته ويتحرر من استعباد شهواته ورغباته، ويتخلص من نوازع السوء ونزغات الشيطان، فتنقلب حياته كلها بناء وعطاء وهدى ورحمة تعم أنواع الكائنات، وقد سمى الله تعالى دينه الحق ـ الذي اختاره لعباده حبلًا ممدودًا يصلهم به ويتواصلون به فيما بينهم ـ الإسلام، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران: ١٩، وقال: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ آل عمران: ٨٥، وبين أنه هو الذي ارتضاه فبعث به رسله جميعًا، إذ قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ الشورى: ١٣، ووصف به أنبياءه فذكر عن نوح قوله:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يونس: ٧٢، وقال فيما حكاه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندما كانا يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ البقرة: ١٢٨، وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١، وذكر أنه وصية النبيين الكريمين إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما، فقال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣، وبرأ إبراهيم عليه السلام من أي دين غير الإسلام فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران: ٦٧، وذكر عن ملكة سبأ أنها قالت بعدما تخلت عن وثنيتها وانقادت لله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ النمل: ٤٤، وذكر التوراة فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ

﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ المائدة: ٤٤، ووصف آل لوط عليه السلام أنهم كانوا على الإسلام، فقال: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الذاريات: ٣٦، وذكر الحواريين فقال: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ آل عمران: ٥٢، وقال: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ المائدة: ١١١، وذكر أهل الكتاب الذين تمسكوا بحبله وارتبطوا بهداه فلم يزيغوا عنه قيد شعرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ القصص: ٥٢ ـ ٥٣.

تلك هي شواهد القرآن الدالة على وحدة الدين، وإن اختلفت الشرائع في رسالات الله بحسب ما تقتضيه مصلحة الأمم، وقد أتم الله النعمة بهذا الدين على هذه الأمة إذ أنزله على نبيها عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأوسع حكم وأدق نظام وأبلغ حكمة، لذلك امتن بهذا عليها بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة: ٣.

ولا يخفى أن الإسلام الحق سعدت به الأمم في أدوار تأريخها عندما آوت إلى ظله الظليل فوقاها هجير المحن والفتن أن يلفحهم سعيرها، وحماهم في حماه الأمين من عوادي الزمن ونوائب الدهر أن يزعزعهم تعاقبها، فوجدوا فيه الأمن والطمأنينة، وحررهم من العبودية لغير الله تعالى كما بين ذلك المسلم الحر الغيور ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما حضر عند رستم القائد الفارسي جلسة للمفاوضة، فسأله رستم: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[1]، وكما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ عندما اقتص من ابن

(١) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ٤٠١/٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت، وينظر؛ الكلاعي: **الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، ١٩٢/٤، وابن كثير: **البداية والنهاية** ١٣٤/٧، وصفوت: **جمهرة خطب العرب**، ٢٤٢/١.

عامله على مصر عمرو بن العاص لما ضرب قبطيًا بغير حق ـ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»[1].

وكفى تطبيقًا لهذا التحرير للبشر من ربقة العبودية لغير الله أن ينصف الإسلام رجلا يهوديا ذميا عندما حبك بعض المنسوبين إلى الإسلام خديعة للإيقاع به لوقاية حميمهم من جرم ارتكبه فأرادوا إلصاقه باليهودي فما كان إلا أن أنزل الله تعالى آيات بينات تتلى في الصلوات وفي غيرها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تجنب النبي ﷺ الوقوع في حبالة تلك الخديعة وتنصف اليهودي منهم، وهي قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) ينظر؛ القرشي؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم: **فتوح مصر وأخبارها**، ٢٩٠/١، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر ـ بيروت، ط١: ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، والزمخشري: **ربيع الأبرار**، ٢٨٩/١.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن
يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ
يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ
خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ
وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ
وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿ النساء: ١٠٥ ـ ١١٣.

عجز الحضارات والفلسفات عن إضفاء الأمن على حياة الإنسان

لا يغني عن الدين شيء مما يبتكره البشر وكيف يقارن بالدين غيره مع أن الدين من عند الله تعالى الذي خلق كل شيء فسواه وأتقن صنعه وأحكم نظامه وعلم بواطنه كظواهره، وأحاط بخفاياه كجلاياه، وقد شرع الدين متجاوبًا مع الفطرة التي فطر عليها الوجود كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٠، ولكون أكثر الناس لا يعلمون أضربوا عن الدين وحاولوا أن يستبدلوا به فلسفات عقيمة وحضارات زائفة ما عادت على الإنسانية إلا بالوبال، فقد كانت عند الروم والفرس حضارات عريقة وتمكنت الفلسفات من أفكارهم ولم يجد الإنسان في نظمهم إلا التعاسة والشقاء، فكم كابدت الإنسانية من جورهم وبطشهم

وحروبهم؛ التي يشنونها من أجل توسعة سلطتهم وتعميم بطشهم واستعبد الإنسان في ظل دولهم القاهرة، حتى كان أذل من النعال وأرخص من الحشرات، ولم يذق الإنسان الذي كان يعاني من ويلاتهم ويكابد عسفهم طعم الحرية، ولم يعرف معنى إنسانيته إلا عندما جاءهم الإسلام.

وعندما تسنى للإنسان في العصور الأخيرة أن يرود المجاهل في الحقول العلمية، وينقب عن خزائن العلم، ويفتش عن أسرار الحياة، فيواكب حضارته التي ازدهرت في الغرب تقدم علمي باهر، لم تختلف حياة الناس عما كانت عليه من الضراوة، وتحكم البغضاء بينهم، وتأصل الحمية، وتصلية الإنسان حر جحيم من الفتن يفوق كل تصور، ففضلا عما كابدته الإنسانية من تلك الأمم ـ التي بزت في العلوم، وتميزت بالحضارة، وتفوقت في دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع ـ باستعبادها والتحكم في حياتها، وتسخيرها كما تسخر الحيوانات العجم تحت لائحة الاستعمار،

فإن أولئك المستعمرين أنفسهم ـ الذين كانوا رادة العلوم وقادة الحضارات؛ والذين نصبوا أنفسهم آلهة لمن رزئ بضمه تحت طائلة قهرهم ـ شن بعضهم على بعض من الحروب ما أباد المدن والقرى، وأتى على الأخضر واليابس، وأهلك الحرث والنسل، وأعدم من معالم حضارتهم الطارف والتليد، ناهيك بالحربين العالميتين العظميين اللتين لم يفصل بينهما من الزمن غير عقدين من السنين، فقد التهمتا في جوفهما المنهوم ملايين لا تحصى من البشر، وأتى سعيرهما على كل شيء حتى كاد يبيد العالم بأسره، وما ذلك إلا لتنافسهما في التسلط ورغبة كل فئة أن تنفرد بالسلطة والتحكم في العبث بأمن العالم دون من عداها، ولم يخب ضرامهما وينكفئ سعيرهما إلا بسبب ما أصاب جميع الأطراف من الإرهاق.

وبعد أن وضعت الحرب الثانية أوزارها تقاسمت قوتان كبريان في العالم غنائم الحرب باجتياح شعوب ظلت تحت القهر والاستعباد، وكل واحدة

منهما فرضت على ما تحتها إرادتها وتحكمت في مصيرها وألزمتها أن تعيش ذليلة خانعة تحت مواطئ أقدامها، وما كان يحجز هاتين القوتين بعضهما عن بعض إلا الخوف من عواقب الصدام، بسبب تعادل كفتيهما في ابتكار وسائل الدمار، واختراع ما يمكن أن يبيد الأرض ومن عليها من أسلحة الإبادة الشاملة، وظلت بينهما حرب باردة كما سموها بسبب ما تحكم فيهما من العداوة والبغضاء بينهما، ودارت صروف الدهر بما حتم عليهما إنهاء ما كانوا يسمونه الحرب الباردة، إلا أن العدوان على الشعوب الوادعة المسالمة استعرت ناره، فكابدت الشعوب منه ما الله به عليم، فلم يعد خافيًا ما عاناه الشعب العراقي من العدوان عليه وتحطيمه، وما عاناه الشعب الأفغاني وما عانته شعوب في مختلف الأقطار، دعك مما يجري في الأرض الفلسطينية المباركة العزيزة من قبل الاحتلال الغاشم من قتل وإبادة وانتهاك لجميع الحقوق.

وهذا الشـــعور بهذه المعاناة التي تعانيها الشعوب من ظلم القوى المتســـلطة التي ترفع شـــعار المناداة بحقوق الإنســـان تحت هـــذا الشـــعار تنتهك حقوق الإنســـان وتباد كرامته. هذا الشعور لم يعد خافيًا على أحد حتى ممن كانوا يديرون دفة السياســـة في القوى العظمى، المتحكمة في أحوال الشعوب المغلوبة على أمرها، فبعد ســـقوط جدار برلين ومرور عشرين عامًا على ذكراه كتب جورباتشـــوف ـ الذي كان آخر زعيم للاتحاد الســـوفيتي المنهـــار ـ مقالًا ينعـــى فيه وضع الإنسانية التعيس في ظل هذا النظام العالمي الجديد، وأدع له المجال ليكشف عن الحقائق التي كان حريصا على إخفائها من قبل، فإليك جانبا مما قال:

«في الوقت الـــذي نحتفل فيه بالذكرى الســـنوية لسقوط جدار برلين، حان الوقت للنظر والتفكير.

فقد كان جدار برلين أحد الرموز المخزية للحرب الباردة والانقسام الخطير في العالم الى كتل متعارضة

ومناطق نفوذ. كان كثير من الساسة من جيلي يعتقدون بصدق أنه بانتهاء الحرب الباردة، فإن البشرية كان يمكن أن تنسى في النهاية سخافة سباق التسلح والتخلص من الصراعات الإقليمية الخطيرة والتخلي عن الخلافات الأيديولوجية العقيمة والدخول في القرن الذهبي من الأمن الجماعي. وكنا نأمل بأننا يمكن أن نرى استخدامًا رشيدًا للموارد المادية وإنهاء الفقر وعدم المساواة واستعادة الانسجام مع الطبيعة.

لكن للأسف فإنه خلال العقود القليلة الماضية لم يصبح العالم مكانًا أكثر عدلا؛ فالتفاوت بين الاغنياء والفقراء إما بقي على حاله أو زاد، ليس فقط بين الشمال والجنوب النامي بل أيضًا بين البلدان المتقدمة نفسها.

وتعد المشاكل الاجتماعية في روسيا، كما هو الحال في بلدان ما بعد الشيوعية الأخرى، دليلًا على أن التخلي الواضح عن نموذج معيب من الاقتصاد

المركزي والتخطيط البيروقراطي ليس كافيًا، ولا يكفل لا القدرة على المنافسة العالمية للبلد ولا احترام مبادئ العدالة الاجتماعية ولا مستوى معيشة كريمة للسكان.

في الوقت الذي يمكن فيه للساسة من القرن الماضي أن يفخروا بحقيقة أننا تجنبنا خطر حرب نووية هائلة، إلا أنه بالنسبة لملايين كثيرة من الاشخاص في أرجاء المعمورة فإن العالم لم يصبح مكانا أكثر أمنا. بل العكس تماما، فإن الصراعات المحلية الكثيرة والحروب العرقية والدينية بالإضافة إلى الإرهاب، قد بدت أشبه باللعنة على الخارطة الجديدة للسياسة الدولية، الأمر الذي يخلف أعدادا كبيرة من الضحايا.

إن الجيل الجديد من الساسة يعملون بشكل غير مسئول. فالإنفاق على الدفاع من قبل البلدان الكبيرة والصغيرة على حد سواء هو الآن أكبر بكثير عما

كان عليه خلال الحرب الباردة. وأساليب التسلح القوية هي مرة أخرى الطريقة المعيارية في التعاطي مع الصراعات. وتنتشر أسلحة الدمار الشامل ولا يزال الخصوم السابقون في الحرب الباردة يتنافسون على الوصول الى مستويات تقنية جديدة في إنتاج الأسلحة.

بالتفكير فيما سبق، فإن الإنجاز الحقيقي الوحيد الذي نستطيع الاحتفال به هو حقيقة أن القرن الـ ٢٠ سجل نهاية للأيديولوجيات الشمولية السلطوية، وبخاصة تلك التي كانت تقوم على الافكار المثالية.

مع ذلك فإن الأيدولوجيات الجديدة سرعان ما تحل محل الايديولوجيات القديمة. وينسى الكثيرون الآن أن سقوط جدار برلين لم يكن السبب للتغيرات العالمية بل كان إلى حد كبير النتيجة لحركات إصلاحية عميقة وشعبية بدأت في الشرق في الاتحاد السوفيتي بشكل خاص.

بعد عقود من التجربة البلشفية وإدراك أنها دفعت المجتمع السوفيتي إلى طريق مسدود تاريخيا، تطورت دفعة قوية للإصلاح الديمقراطي في شكل **البيريسترويكا** السوفيتية، والتي توفرت أيضا لبلدان شرق أوروبا.

لكن سرعان ما أصبح واضحا جدا أن الرأسمالية الغربية أيضا، وبعدما تخلصت من خصمها القديم وتخيلت نفسها المنتصر بلا منازع والمجسدة للتقدم العالمي، كانت الخطر الذي دفع المجتمع الغربي وبقية العالم الى طريق مسدود تأريخي آخر.

الآن، كشفت الأزمة الاقتصادية العالمية عن الخلل العضوي في النموذج الحالي من التنمية الغربية الذي تم فرضه على العالم بوصف ذلك الشيء الوحيد الممكن. كما أظهرت أيضًا أنه ليست الاشتراكية البيروقراطية وحدها، بل إن الرأسمالية أيضًا في حاجة

الى إصلاح ديمقراطي عميق، وفي الحقيقة فإن هذه نوعيتها الخاصة من **البيريسترويكا**»[1].

وكفى بهذا اعترافًا بالواقع المؤلم التي عانته الإنسانية بعد الحرب العالمية الثانية، أثناء الحرب الباردة وما استمرت على معاناته بعد انتهاء هذه الأخيرة، فإن جميع الاتفاقات الكونية ومعاهدات الأمم التي تسير مع التطورات العلمية والفلسفية لم تعد على الإنسان بما يحمد، بل ظل الإنسان محرومًا من حقوقه يكابد الظلم أينما اتجه، ويحيط به اليأس في إيوائه إلى أي ركن كان، وهذا كله يؤكد بأنه لا نظام يرعى للإنسان مصالحه ويحفظ له حرماته ويوفر له حقوقه إلا نظام الدين الحق الذي جاء من عند الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ الحديد: ٩.

(١) نقلا عن مقال لجروباتشوف في جريدة الوطن العمانية، منشور بتاريخ ٢٣/ذي القعدة/١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩/١١/١١م، ينظر من خلال الرابط: https://alwatan.com/graphics/2009/11nov/11.11/dailyhtml/opinion.html#8

الغرب والدين

من المعلوم أن الغرب كان بعيدًا عن التأثر بالدين وتنوره برسالات الله تعالى، ولذلك شاعت فيه فلسفة الإلحاد، فصار لا يؤمن بالله الخالق وبنظامه التي يصل عباده به، وكان فلاسفته المتقدمون ينكرون بداية للعالم ويعتقدون أنه قديم، والألوهية عندهم تتمثل في أشياء متعددة، فكان هناك إله للحب وإله للجمال وآلهة متنوعة لأمور شتى، بعضها ذكران وبعضها إناث، كما كان ذلك عند اليونان، وكذلك الرومان، فقد كانوا غارقين في الوثنية إلى الأذقان، لا صلة لهم بوحي الله تعالى، وإنما بدأت النصرانية عندهم عندما تنصر قسطنطين إمبراطور الروم في بداية القرن الرابع الميلادي، وقد حمل إلى النصرانية أوزارًا من عقائده الوثنية السابقة، ووجد من بعض أساقفتها من تقبلها، فشاب بها عقائد النصرانية.

ونشـــأت بســـبب ذلك معركة جدلية بين الأساقفة أنفسهم، من انســـاق منهم مع التيار الروماني المتأثر بالوثنية ومن حافظ على موروثـــه الفكري الذي كان غالبه موصولا بتعاليم المســـيح عليه السلام، ثم كان التدخل السافر من قبل السلطة لإخضاع الناس بالقوة للعقيدة الجديدة التي ظاهرها اتباع لتعاليم المســـيح وباطنها محافظة على المواريث الوثنية، وقد صور أحد نصارى العرب وهو رشيد ســـليم الخوري المعروف بالشاعر القروي عندما بلغ من العمر تســـعين عامًـــا بالتأريخ الميلادي، وذلك في عـــام ١٣٩٧هـ ـ تمـــوز (يوليو) ١٩٧٧م، فقد كتب آنذاك وصية جاء فيها:

«تذكر المراجـــع التاريخية المتعددة أن الكنيســـة ظلت حتـــى القرن الرابع الميلادي تعبـــد الله على أنه الواحد الأحد، وأن يسوع المسيح عبده ورسوله، حتى تنصر قســـطنطين عاهل الـــروم وتبعه خلـــق كثير من رعايـــاه الرومـــان واليونـــان الوثنيين فأدخلـــوا بدعة التثليـــث، وجعلـــوا لله سبحانه وتعالى أنـــدادًا شـــاركوه في خلق

السماوات والأرض وتدبير الأكوان، ومالأهم الأسقف الأنطاكي مكاريوس ملقبًا نفسه أرثوذكس أي: مستقيم الرأي، فثار زميله ـ آريوس ـ على هذه البدعة ومؤيديها ثورة عنيفة، فانشطرت الكنيسة، واتسع نطاق الجدل حتى أدى إلى الاقتتال وسفك الدماء، فعقدت المجامع للحوار وفاز آريوس بالحجة القاطعة فوزًا مبينًا، وأقيمت له مهرجانات التهنئة والتكريم في إنطاكية والإسكندرية ولكن انحياز السلطة بقوتها وإرهابها وبطشها أسكت صوت الحق، فظل الحق يتململ في قيده منتظرا آريوسا جديدا، واستمرت الكنيسة ستة عشر قرنًا إلى اليوم عامهة في ضلالها الوثني، تنتظر مجيء آريوس جديد، وكم أتمني وأنا أرثوذكسي المولد، أن يكون الآريوس حبرًا أرثوذكسيًا عظيمًا ليصلح ما أفسده سلفه القديم، ويمحو عنا خطيئة أوقعها فينا غرباء غربيون، ولطالما كان الغرب ولا يزال مصدرًا لمعظم بلايانا في السياسة وفي الدين على السواء».

ثم قال: «لقد كان في نيتي إعجابًا مني بالقرآن، وإيمانًا مني بصدق نبينا العربي ووضوح سيرته، أن أكون قدوة لإخواني أدباء النصرانية، فأدخل في دين الله، ولكنني بدا لي أن الدعوة إلى تصحيحنا خطأ طارئًا على ديننا تكون أكثر قبولًا وشمولًا من الدعوة إلى عدولنا عنه إلى سواه. فقررت أن تكون لي الخطوة الأولى في هذا السبيل: إيقاظ الآريوسية الموحدة من نومها الطويل ليعود الحق إلى نصابه، وتزول العقبة الوحيدة المفتعلة الفاصلة بين الدينين، ونغدوا بعدها إخوانًا على سرر متقابلين، فيتيسر لنا تحقيق وحدتنا الكبرى، وبعث حضارتنا الأخلاقية التي طالما ملأت دنيا الناس عدلًا وسلامًا، أما خطوتي المبتكرة المشار إليها فهي أني أذيع على الملأ عزوفي عن أرثوذكسيتي المكاريوسية إلى الأرثوذكسية الآريوسية، وأطلب في وصيتي هذه أن يصلى على جثماني شيخ وكاهن فيقتصران على تلاوة الفاتحة والصلاة الربانية لا أكثر ولا أقل ثم أوارى

الثرى في بقعة طيبة حددتها قرب منزلي وينصب على قبري شاهد خشبي متين وبسيط في رأسه صليب وهلال متعانقين رمزا للوحدة التي جاهدت في سبيلها طول حياتي، هذه وصيتي التي أريد تنفيذها بعد وفاتي وأصب لعنتي على من يخالفها، ورحم الله حيًا وميتًا كل من يذكرني بالخير ويترحم عليّ..» اهـ.

هذا، وقد شرح المعلم بطرس البستاني منهم في دائرة المعارف الأطوار التي مرت بها هذه العقيدة فقال: «(ثالوث Trinite - y) كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معًا في اللاهوت تعرف بالأب والابن والروح القدس، وهذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت إلا ما ندر، والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون إلى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس، وقد أضاف اللاهوتيون إليه شروحًا وإيضاحات اتخذوها من تعاليم المجامع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام. وهي تبحث عن طريقة ولادة الأقنوم الثاني وانبثاق

الأقنوم الثالث، وما بين الأقانيم الثلاثة من النسبة، وصفاتهم المميزة وألقابهم. ومع أن لفظة ثالوث لا توجد في الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث، قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية في اللاهوت؛ ولكن إذ كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لا يؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث بل كرموز إلى الوحي الواضح الصريح الذي يعتقدون أنه مذكور في العهد الجديد. وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لإثبات هذا التعليم (أحدهما) الآيات التي ذكر فيها الأب والابن والروح القدس معًا (والآخر) التي ذكر فيها كل منهم على حدة والتي تحتوي على نوع أخص صفاتهم ونسبة أحدهم إلى الآخر.

والجدال عن الأقانيم في اللاهوت ابتدأ في العصر الرسولي، وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة

الهيلانيين والغنوسطيين فإن ثيوفيلوس أسقف إنطاكية في القرن الثاني استعمل كلمة (ترياس) باليونانية، ثم كان (ترتليانوس) أول من استعمل كلمة (ترينيتاس) المرادفة لها ومعناها الثالوث، وفي الأيام السابقة للمجمع النيقاوي حصل جدال مستمر في هذا التعليم وعلى الخصوص في الشرق؛ وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها أراتيكية ومن جملتها آراء الأبيونيين الذين كانوا يعتقدون أن المسيح إنسان محض (والسابيليين) الذين كانوا يعقتدون أن الأب والابن والروح القدس إنما هي صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس (والآريوسيين) الذين كانوا يعتقدون أن الابن ليس أزليًا كالأب بل هو مخلوق منه قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له، و(المكدونيين) الذين أنكروا كون الروح القدس أقنوما.

وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ للميلاد، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأن الابن والروح القدس مساويان للأب في

وحدة اللاهـــوت، وأن الابن قد ولد منـــذ الأزل من الأب، وأن الروح القدس منبثق مـــن الأب، ومجمع طليطلة المنعقد ســـنة ٥٨٩ حكم بأن الـــروح القدس منبثق من الابـــن أيضًا، وقد قبلت الكنيســـة اللاتينية بأســـرها هذه الزيادة وتمســـكت بها، وأما الكنيســـة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتة لا تقاوم قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاســـبة ذلك بدعة.

وعبارة (ومـــن الابن أيضًـــا) لا تزال مـــن جملة الموانـــع الكبرى للاتحـــاد بيـــن الكنيســـة اليونانية والكاثوليكية، وكتـــب اللوثيريين والكنائس المصلحة أثبتت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير، ولكن قد ضـــاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديـــدة كالسوســـينيانيين والجرمانييـــن والموحدين والعموميين وغيرهم حاســـبين ذلك مضـــادًا للكتاب المقدس والعقل، وقد أطلق (ســـويد تيـــراغ) الثالوث

على أقنوم المسيح معلمًا بثالوث. ولكن لا ثالوث الأقانيم بل ثالوث الأقنوم. وكان يفهم بذلك أن ما هو إلهي في طبيعة المسيح هو الأب، وأن الإلهي الذي اتحد بناسوت المسيح هو الابن، وأن الإلهي الذي انبثق منه هو الروح القدس، وانتشار مذهب العقليين في الكنائس اللوثيرية والمصلحة أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين.

وقد ذهب (كنت) إلى أن الأب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت، وهي القدرة والحكمة والمحبة، أو على ثلاثة فواعل عليا وهي الخلق والحفظ والضبط، وقد حاول كل من هيجين وشلنغ أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسًا تخيليا وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون، وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية؛ وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحي لا يتمسكون

بتعليم استقامة الرأي الكنائسية بالتدقيق كما هي مقررة في مجمعي نيقية والقسطنطينية المسكونيين، وقد قام محامون كثيرون في الأيام المتأخرة لعضد آراء السابيليين على الخصوص». اهـ[1]

وقد جرت سفينة هذا الفكر الجديد ـ الذي فرضه قسطنطين ـ على بحيرة من الدماء إلى أن رسخت في الأذهان بقوة السلاح، كما أثبته غير واحد من الغربيين منهم آرثر فوكس في كتاب مايكل سيرفيتوس المطبوع بلندن ١٩١٣م ص٢٤ ـ ٣٠، وريتشارد ويستفال في كتابه حياة إسحاق نيوتن، كمبريدج، ١٩٩٨م، ص١٢٨، و ريلاند، أبحاث عن المحمديين، ص٢١٥، وفرانكلين ستاينر، عقائد رؤسائنا الدينية، ميلواكي ١٩٣٦م الفصل الثالث بعنوان **الرؤساء الموحدون**، **وكورتز، تاريخ الكنيسة**، ص١٧٨، نشر باتلر آند تانر، لندن ١٩٣٢م،

(١) البستاني؛ المعلم بطرس: **دائرة المعارف**، ٣٠٥/٦ ـ ٣٠٦، مؤسسة مطبوعاتي اسماعليان، تهران ناصر خسرو ـ باسار مجيدي.

وديمتريوس كوسولاس، **حياة وزمن قسطنطين العظيم**، ص٣٤٥، ط٢، ميريلاند، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٧م، والأسقف هانسون آدمبرا **في البحث عن عقيدة الألوهية في المسيحية**، ١٩٨٨، ص٢٢، وهيوبرت جدين **في الكنيسة المبكرة، ملخص تأريخ الكنيسة**، نيويورك ١٩٩٣، ص١٨١، ويوحنا النقيوسي في كتابه **رؤية قبطية للفتح الإسلامي**، ترجمه من النسخة الحبشية د. صابر عبد الجليل، نشر عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص١١٢، و موريس وايلز في كتابه **الهرطقات المتعلقة بالنماذج الأصلية**، أكسفورد ١٩٩٦م، ص٣٢، و د.كورتز في كتابه **تاريخ الكنيسة**، نشر باتلر آند تانر، لندن ١٩٣٢م، ص٨٠، وغيرهم كثير.

ولا يخفى ما تضمنته هذه العقيدة من الألغاز المحيرة التي هي أشبه بالطلاسم، فلذلك سلكوا في تفسيرها طرائق قددا، وظلوا فيها متخبطين، ولم يقف الشقاق فيها بين المكاريوسيين والآريوسيين وإنما احتدم الخلاف فيها بين طوائفهم الكبرى التي

تقبلت الطرح الذي طرحه قسطنطين بين متمسك بالنص الذي اعتمدته مجامعهم ومن عدل عنه إلى بعض تأويله.

«فمنذ أن انطلقت ثورة الإصلاح الديني التي أوقد شرارتها الراهب الألماني مارتن لوثر، عصفت بأوروبا حروب دينية راح ضحيتها ملايين من الناس، فكانت تهمة الهرطقة كافية لاستباحة الكاثوليكيين دماء البروتستانتيين، وكان اعتناق ملك من الملوك مذهب البروتستانت كافيًا لحمل رعيته على اعتناقه بالقوة، وأن يكون مصير من يمتنع عن ذلك القتل أو أنه يبقى مستخفيًا بدينه، ومن أبرز الحروب التي وقعت بين طوائف النصارى حرب استمرت ثلاثين عامًا من سنة ١٦١٨م إلى ١٦٤٨م، وكانت هذه الكوارث داعية لعقلاء أوروبا ليفكروا بوضع حد لهذه الحروب فكان صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م الذي أرسى حرية الاعتقاد.

لقد أدرك عقلاء الأوروبيين أن التعصب الديني كان سببًا من أسباب انحطاطهم الحضاري، وأنه يعود

بهم إلى إفنـــاء بعضهم بعضًـــا، فتواتـــرت بعد ذلك دعوات المفكرين والفلاسفة الأوروبيين إلى التسامح الديني، وشكل التسامح مفهومًا من أهم المفاهيم التي قامت عليها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، ثم في القرن الأخير نص في دســاتير الدول والمواثيــق الدولية ـ كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ على صيانة حرية الاعتقاد»[١].

وهكذا ظل الدين تبعًا لأهواء الحكام الذين كانوا يســوقون قادة الدين كما يملي عليهم هواهم، وظلت المجامع تنتقص منه شيئا فشيئا كما سيأتي مزيد بيان له إن شاء الله.

وبعد أن قامت الثورة الصناعية الكبرى في أوربا ظل الدين محنطا في متاحــف التأريخ لا أثر له في

(١) ينظر؛ ياسين؛ محمد براء: **عقوبة المرتد في الشــريعة الإسلامية وجواب معارضــات المنكريــن**، ص٨٧ ـ ٨٨، مركــز التأصيل للدراسات والبحوث ـ جدة، ط١: ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

حياة الناس قط، ولا قيمة له في موازينهم، وإنما بقي وسيلة لقضاء الأغراض السياسية الاستعمارية كما بين ذلك القس زويمر فيما قدمه إلى المنصرين من نصيحة في المؤتمر التنصيري الذي انعقد في مدينة القدس الشريفة محرم ١٣٥٤هـ - إبريل (نيسان) ١٩٣٥م إذ قال: «أيها الإخوان الأبطال، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية، واستعمارهم لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدّس، لقد أدّيتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن أداء، ووفقتم لها أسمى توفيق. وإن كان ليخيل إليَّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه. إنني أقركم على أنّ الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة:

* إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام.

* أو رجلٌ مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتدّ به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش.

* وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمّدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإنَّ في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتهنئكم الدول المسيحية والمسيحيون جميعًا عليه كل التهنئة.

لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء. إنكم أعددتم له بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد.

إنكم أعددتم شبابًا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل. ولا يصرف همّه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إنّ مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب»اهـ[1].

فترى أن المنصرين أنفسهم كانوا رادة إلحاد وقادة فساد بين الأمم، وما الحركة التنصيرية إلا مركبة امتطوها لوصولهم إلى أهدافهم في استعباد الناس واستذلالهم، وامتصاص كل ما بأيديهم من خير، وبانحسار روح الدين من حياة الناس في الغرب صاروا يسخرون من الدين ويتهكمون به، ويهزأون من كل من يذكرهم بالله، وقد شهد شاهد منهم بأحوالهم بعد ما راضها وخبرها ظهرا وبطنا، لأنه نشأ بينهم على ما هم عليه، ولكن الله هداه فانتشله من هذا الضياع وبصره بالإسلام فاتبعه واستمسك به، وهو

(١) الميداني: **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها**، ص٩٩ ـ ١٠٠، دار القلم ـ دمشق، ط٥: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، وينظر؛ عبد الله التل: **جذور البلاء**، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، دار الإرشاد ـ بيروت، ط١: ١٣٩٠هـ /١٩٧١م.

الأستاذ محمد أسد الذي نعى على قومه تلك الحالة البائسة من الإفلاس الشديد من قيم الدين، وكان هذا من أمد بعيد لعله يقترب من قرن من الزمن، فقد قال في كتابه القيم **الإسلام على مفترق الطرق**:

«لا ريب أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط. إن الأوروبي العادي ـ سواء عليه أكان ديمقراطيًا أم فاشيًا، رأسماليًا أم بلشفيًا، صانعًا أم مفكرًا ـ يعرف دينًا واحدًا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج (طليقة من ظلم الطبيعة)، إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة

الصناعات وأبطال الطيــران، وأن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بخلق دعامــات متخاصمة مدججة بالســلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضًــا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة، أما علــى الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلســفته الأخلاقية في مســائل الفائدة العلمية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي»[1].

وبسبب هذا الانحسار الفظيع لروح الدين وهيبته وتأثيره تحطمت عندهم القيم، وتلاشــت الفضيلة، وعمت الإباحية، ومــات الحياء، وانحصر هم الناس في الشهوات، وبلغوا فيها أقصى ما يمكن أن يتصور

(١) أســد؛ محمد: **الإســلام على مفترق طرق**، ص٤٧ ـ ٤٨، ترجمة: عمر فــروج، دار العلم للملايين ـ بيــروت، ط: ١٩٨٧م، وينظر؛ الندوي؛ أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني: **ماذا خســر العالم بانحطاط المسلمين**، ص١٧٠ ـ ١٧١، دار الغد الجديد ـ المنصورة/مصر، ط١: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

حتى استحسنوا واستطابوا ما تعافه الحيوانات العجم بطبيعتها، فمالوا إلى الشـــذوذ الجنسي وتدافعوا إليه زرافات ووحدانا، وأصبح عندهم من أقدس المبادئ التي لا يتغاضون عمن نال منهـــا بانتقاص أو اجترأ على نقدها، أو اســـتخف بمن تلبـــس بها، حتى بلغ بهم الأمر أن البنوك الدولية لا تســـمح بقرض لدولة لا تقر هذا الانحطاط بين رعاياهـــا، ولم يكن الدين عندهم بمنأى عن الترويج لهذه الفاحشة، فقد بدأت الكنيسة البروتستانتية بالاعتراف بما يسمونه الزواج المثلي وإقراره.

ولم يقف الأمر عند حدود الاعتراف فحســـب، بل بلغ إلى التشدد البالغ على من أنكره، ولست أقول هذا اعتباطا وإنما أقوله بعد مجادلة وقعت بيني وبينهم في هـــذا، فقبل بضع ســـنوات طلـــب لقائـــي جماعة من القسيسين البروتستانت ومعهم تلامذتهم وتلميذاتهم، وفي أثناء تجاذب أطراف الحديث بيني وبينهم طرحت قضايا تعد عندهم من أساســـيات الاعتقـــاد وكنت لها

ناقدا صريحا، ومن بينها ما في الأناجيل الأربعة من التناقض العجيب في وصف طبيعة المسيح عليه السلام، وقضايا أخرى هي من ركائز وثوابت دينهم، ولم يحرك ذلك منهم ساكنًا، بل كانوا صامتين، ولكنني ما كدت أطرق قضية الزواج المثلي (كما يسمونه) حتى ثارت حفيظتهم جميعًا ذكرانًا وإناثًا، وعندما سألتهم: هل تعتقدون أن المسيح عليه السلام لو كان موجودًا بيننا كان يقر ذلك؟ أجابوا كلهم: نعم، مع التأكيد على ذلك، فقلت لهم: هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنكم ترون المسيح هو أخس فطرة من الحيوان ما دام الحيوان يأبى ذلك بفطرته، وسألتهم: هل كنتم تعولون على هذا نفسه في القرون الماضية؟ فأجابوا: لا، بل كانت عقوبة من وقع في ذلك القتل إحراقا بالنار، فسألتهم: وما الذي انحرف بكم عن ذلك؟ فقالوا بأن ذلك كان قسوة وتعديا على حقوق الإنسان، فقلت لهم بأن هذا يعني أن آخركم يلعن أولكم، وأن دينكم يتحول من وضع إلى وضع، ومن عقيدة إلى غيرها، فأجابوا بأن

هذا من التطور الذي يشمل الفكر الديني، فقلت لهم: إن الدين الذي هو من عند الله تعالى ثابت لا يحق للإنسان المساس به، وما هذا إلا لأن الدين عندكم أصبح تبعا للأهواء فهو في كل وقت يتلون بلون جديد، ويظهر بوجه آخر.

وقد طرحت هذا الموضوع على **د.إروين تانر تيزياني** الأمين العام لمجلس الأساقفة بسويسرا وأمين مؤتمر الحوار مع المسلمين عندما زارني بمكتبي في يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الثاني ١٤٤٠هـ ـ ١٢/١٩ /٢٠١٨م، فرد علي بأن أولئك هم على مذهب البروتستانت، أما نحن الكاثوليك فلا نقره في كنائسنا، ولكن لم يمض على كلامه هذا إلا حول أو حول وأَشْهُر حتى أَشْهَر بابا الكاثوليك بالفاتكان الاعتراف بهذا الزواج، فأُقِرَّ في الكنيسة الكاثوليكية كما أُقِرَّ من قبل في الكنيسة البروتستانتية، وما هو إلا دليل على أن الدين أصبح عندهم ألعوبة يتصرفون فيها كما شاؤا، نسأل الله تعالى أن يحفظ الإسلام دينه الحق وأن ينصره على

كل مناوئيه من داخله أو خارجه، فكم هي محاولات بث الفساد في صفوف الأمة المسلمة وتقف المؤسسات الكفرية كلها وراء ذلك وفي مقدمتها الصهيونية العالمية.

ومما نمى إلي من شرور الأنباء أن أحد أعداء الإسلام المحسوبين عليه، وهو يسعى من الداخل إلى نقض بنائه لبنة لبنة يعيش في بعض البلاد الغربية في بذخ وبحبوحة من العيش، وقد بنى على حسابه مسجدين هنالك، وهو يؤم الناس في أحدهما، ويعلن جهرة إباحة هذه الفاحشة وتزيينها وتزيين ما يسمونه بالزواج المثلي، ويتولى في مسجده عقد الزواج بين الشاذين، وقد حدثني من سمعه على شاشة التلفاز يعلن بغير خفاء فتواه الفاجرة بإباحة ذلك، ويبدي في هذا مجادلات عقيمة تدل على انطماس بصيرته وتعفن طبعه وتنجس فطرته، وما هو بهذا الجدل إلا مرتد عن دين الله تعالى الإسلام، فإن من أباح ما دون هذا مما حرم الله تعالى لا تبقى له بالإسلام صلة، فكيف بما هو أقبح

الفواحش وأخس الدنايا، نص على تحريمها كل شرع وطبع الله على التقزز منها كل مخلوق سوي الفطرة.

ناهيك بقوارع خطاب قوم لوط التي حكاها الله تعالى في القرآن الكريم عن عبده لوط عليه السلام، الذي تصدى لهذا الأمر الفاحش عندما مارسه قومه كما في قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢، فأنت تراه سمى هذا الفعل الشنيع فاحشة تأكيدًا على شناعته وقبحه، فإن اللغويين قالوا: «الفُحْشُ والفَحْشاء ـ القبيح من القول والفعل وكذلك الفاحِشة»[1]، وقال الجوهري: «وكلُّ شيءٍ جاوز حدَّه فهو فاحِشٌ»[2].

(١) ابن سيده: **المخصص**، ٣٨٥/٣، وينظر؛ ابن منظور: **لسان العرب**، ٣٢٥/٦، والفيروزأبادي: **القاموس المحيط**، ١٨٥/١.

(٢) الجوهري: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ٣/ ١٠١٤.

وهو في هذا التقريع البالغ يؤكد أنهم لم يسبقوا إلى هذه الفاحشة مع أنهم سبقتهم أمم إلى الكفر كقوم نوح وعاد وثمود، ولكنهم مع غلوائهم في الكفر وعنتهم في الشقاق وإغراقهم في الضلال لم ينحطوا إلى هذه الرذيلة الهابطة، بل ربما لم تخطر ببالهم قط لأن الفطرة ترفضها وتتقزز منها، وقد نص خطابه على أنهم لم يسبقهم إليها أحد من الخلق جميعًا، لا من البشر وحدهم، إذ لم يعنفهم أنهم لم يسبقهم إليها أحد من الناس، وإنما نص على أنهم لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، والعالمون جمع عالم، والعالم كل ما كان علما وشاهدا على وجود الله تعالى، فقد نص من نص من اللغويين أن «معنى العالمين كل ما خلق الله كما قال: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ١٦٤»[1]، وهو يدل على أن هذه الفاحشة لم تكن قبل قوم لوط في أحد من الخلق لا من الإنس ولا من الجن ولا من الدواب

(١) ابن منظور: **لسان العرب**، ٤١٦/١٢.

ولا من الطيـــر ولا من الحشـــرات والديـــدان، وإنما ابتدعها قوم لوط لعنهم الله، وكانوا يدركون أن التلبس بها هو تلبس بنجاســة وقذارة، فلذلك كانوا ينكرون على لـــوط ومن معه أنهـــم قوم يتطهـــرون، وهو من انقلاب الموازيـــن عندهم إذ أصبـــح عندهم التنجس والتدنس شرفًا وفضلًا، والتطهر والتنزه خسة ودناءة، وهكذا يزين لهم الشيطان ويملي لهم.

وكم حاول لوط عليه السلام أن يثيـــر فيهم الحس الفطري ويردهـــم إلى الصواب فكان يرشـــدهم إلـــى الاتصال بالعنصر النســـائي عن طريق الزواج الشرعي، فكم قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هود: ٧٨، وليـــس المـــراد ببناته إلا بنـــات مجتمعـــه اللاتي هن نســـاؤهم، وكان بإمكان من لم يكـــن ذا أهل منهم أن يتأهل بالزواج منهن، ولكـــن أبى عليهم ذلك عنادهم: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ هود: ٧٩.

ويجب أن يعلم أنه لم يكـــن يعني ببناته بناته من صلبـــه، إذ لو حللن لهـــم بالزواج الشـــرعي لما كن

يكفينهم جميعا، وما كان لوط عليه السلام ليعالج المشكلة بدعوتهم إلى أن يفرغوا شهواتهم بالزنا المحرم، إذ ليس ذلك من شأن النبيين، كلا والله، ثم إنه ـ حاشاه وكلا ـ لم يكن ديوثا حتى يعرض بناته للزنا، وإنما مراده ببناته بنات مجتمعه، وما كان التعبير بذلك إلا من باب إبداء الشفقة والحنان، كما يقول الراعي لأحد رعيته: يا بُنَيّ، وإن كانوا جماعة قال لهم: يا بَنِيّ، ومع كل هذه النصائح التي كان يواليها لهم ما كان منهم إلا الإصرار على ما هم عليه، فإن قلوبهم كانت أقسى من الحجارة، فأنى تتخللها الموعظة، أو يجديها النصح والتذكير؟

ولما بلغ الأمر مداه وعموا عن كل خير وصَمُّوا عن كل نصح أخذهم الله بعذاب الاستئصال الذي لم يبق لهم من باقية، فقد أرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود لم تخطئ حجرة منها هدفها حتى بادوا عن بكرة أبيهم، ولم يدع الله تعالى أثرا لحياة في مساكنهم، فقد طم عليهم بحر من العذاب، وهو إلى

الآن ليس قابلا لحياة، فلا يوجد في سطحه ولا في عمقه جسم حي، ولذلك سمي بالبحر الميت، وقد ذكر الله تعالى عتاة الكفر من قريش بهذا العذاب المستأصل الذي أباد قوم لوط إذ كانوا يمرون عليهم مصبحين وممسين في رحلاتهم إلى الشام، وهم وإن لم يشاركوهم في نفس الفاحشة التي كانوا يرتكبونها ـ إذ كانت العرب في جاهليتها تترفع عنها أنفة وكبرا ـ فإنهم كانوا مشاركين لهم في الكفر والاستكبار على الحق، ولذلك قال لهم سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨، وذلك ليزدجروا عن كفرهم وعتوهم.

وفي معرض ذكر عذابهم بما أرسل الله عليهم من حجارة لم تدع لهم من باقية ذكر سبحانه أن هذا العذاب ونحوه ليس ببعيد عن أي ظالم، إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود: ٨٢ ـ ٨٣، فهل يأمن اليوم

الذين يقتفون آثارهم ويتبعون خطاهم أن يهلكهم الله بمثل ما أهلكهم؟

وإذا كان انقلاب الموازين اليوم جعل الغربيين يستطيبون هذه الفاحشة ويروجون لها ويحاولون فرضها بقدر ما استطاعوا حتى أن مؤسساتهم الدينية غدت من عوامل الترويج لها، فإني لا أعجب إلا من أمة نزل فيها القرآن بقوارع هذه النذر وهو لا يزال يتلى بينها بما فيه من وعد ووعيد، وما فيه من الزواجر بذكر عذاب الدنيا والآخرة أن يكون فيها من يتسارع إلى تلبية هذا النداء النذل الساقط إعجابا بالغرب وبكل ما يصدر عنه، وأن يوجد بيننا من يستنكر إنكار من ينكر هذه الفاحشة النكراء تصديقا لقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ المائدة: ٥٢، وما هو إلا داء عضال إيفت به هذه القلوب المظلمة، والعقول المنطمسة، والفطر الفاسدة المنتنة، فعندما أقر بابا الفاتكان هذه الفاحشة وتأطيرها فيما يسمى عندهم

بالزواج المثلي علقت على ذلك بأن هذا الأمر يدعونا الآن إلى إعلان قيم الإسلام، وأن نكشف من جهود الدعوة إليه، ليتبين الناس الذين هم على الفطرة بأن هنالك دينا يحمي الأخلاق، ويستمسك بالفضيلة، فما كان من أحد الشباب المرضى إلا أن ساءه ذلك أيما إساءة، وعد ذلك مني تصرفا غير مسؤل.

ومن دواعي الدهشة والاستغراب أن تكون عشيرة هذا الشاب التي ينتمي إليها كان لها حتى في ماضيها القريب تأريخ حري بأن يسجل بماء الذهب في نصرة الإسلام وتأييد الحق ورجاله، وما هو أعجب من ذلك وأحق بالأسى والحسرة أن أحد الشباب من هذه العشيرة نفسها نشأ على العلوم الشرعية ثم ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتخصص في أحد المجالات العلمية، ولم يرجع من هنالك إلا وهو متشبع بهذه السموم في فكره ومتميع في أخلاقه إلى حد التجرد من كل حياء يثنيه عن تزيين هذه الفاحشة في أقبح حالها وأشنع منظرها، فتابع في وسائل

الاتصال تغريداته التي تصب جميعا في وعاء تزيين هذه الفاحشة وتسويغها، وتقديمها للمجتمعات على أنها الحل الأمثل لمشكلات الأسرة، وقد بلغ به الكفر والانحطاط في الفكر والأخلاق والتردي في مهاوي الرذيلة بأن زعم أن العلاقة الجنسية بين رجلين لا وجه لعدها شذوذًا وتسميتها بذلك، وإنما الأولى بتسمية الشذوذ الجنسي أن يتزوج رجل امرأة ثانية بعد حليلته الأولى، وقال بأن الناس لو مارسوا هذه العلاقة لاستغنوا عن تعدد الزوجات وبعدوا عن مشكلاته، وهذا كلام غني عن التعليق، فإنه لا يدل إلا على التجرد من كل فضيلة والتخلي عن كل خلق، والانسلاخ من كل دين، ووقوع قائله في مسخ حَوَّله إلى كائن هجين، ليس له أصل في جنس الأحياء، فضلًا عن كونه فيه بقية من الطبيعة البشرية!

تعدد الزواج عند الرجل ومسوغاته الشرعية

إن الـــزواج الثانـــي والثالث والرابـــع للرجل لم يشـــرعه الله تعالى إلا لحكمة، فإن المرأة لا تستغني عن الرجل كما أن الرجل لا يستغني عن المرأة، وإن لم يبح للرجل أن يعدد النســـاء في عصمته فَقَدَ عددٌ هائل من النســـاء أمل الحيـــاة الزوجيـــة والأمومة، والاستقرار النفسي وطمأنينة القلب، فتظل المرأة في هذا بيـــن مكابدة ما ينتابها مـــن هواجس النفس وما يعرض لها من دواعي الفطـــرة، وما يقض مضجعها من فقدان شـــريك الحياة وفقدان الأمل في الأمومة، والطمأنينة على المستقبل عندما تبلغ من الكبر عتيًّا ـ إن أنســـئ لها في الأجل ـ فإنها لا تطمئن إلا لمن يرعاها من أولادها وذريتها الذين هم بها أبر وعليها أحنى، ولها أرق وأرحم.

ولا أريد أن أطيل في بحث مسوغات مشروعية ما يسمى بـ(تعدد الزوجات) وإنما أدع ذلك لامرأة تتحدث فيه بعد دراستها للموضوع من جميع أطرافه، ولم تكن هذه المرأة شرقية، وإنما هي غربية، عرفت حياة الغرب وتعمقت في فلسفته وألمت بفكره في تعاطي هذه القضايا وأمثالها، ولم تكن ناشئة على الإسلام من أول مرة، وإنما اعتنقته بعد دراسة مستفيضة ومقارنة مدروسة بين أديان شتى ومبادئ مختلفة، وهي السيدة **عائشة ليمو** التي ولدت ونشأت في بريطانيا من أبوين بريطانيين أصلًا وموطنًا، وكانت تدعى قبل إسلامها **بريدجيت**، وقبل أن تتخذ قرارًا باعتناق الإسلام واصلت مقارنته بالأديان الأخرى كالديانات الهندية والصينية وغيرها، واستمرت في هذه الدراسة منهكة جهودها فيها لمدة ثمانية أعوام، منذ كانت بنت ١٣ عامًا إلى أن أتمت من عمرها ٢١ ربيعًا، ولم تجد ما يرضي ضميرها ويملأ فراغها الفكري والعاطفي إلا الإسلام دين الله الحق، فاتبعته مذعنة مستجيبة لداعي

الله، وبعد إنهاء دراستها هيئ لها أن تلتقي بشريك حياتها في المستقبل وهو الشيخ العلامة **أحمد ليمو** أحد علماء نيجيريا البارزين، وأحد قضاتها الشرعيين، فاقتنعت به ربانًا لسفينة حياتهما المشتركة، فتم زواجهما بنظام الشريعة الإسلامية، وكان ذلك الزواج الثاني بالنسبة إليه، وانضمت إلى حليلة سابقة للشيخ ليأويا جميعًا إلى كنفه، ويسعهما جميعًا قلبه الحاني الودود، ورعايته الوادعة اللطيفة، وانتقلت بمعيته إلى مسقط رأسه ـ جمهورية نيجيريا ـ لتكون لها وطنًا ثانيًا، بل لتكون لها هي الوطن الحقيقي لأنها وجدت فيه طمأنينة القلب وراحة الضمير وسكينة النفس بما يظلل حياتها فيها من ظل الإسلام الوارف الظليل، وظلت هناك داعية مجاهدة ومدرسة مربية إلى أن لقيت الله تعالى، وانتقلت إلى مقر الخلود قبل عامين من وقتنا هذا لتجد هناك جزاء ما قدمت من جهد وجهاد.

وقد ألقت في سني شبابها محاضرة قيمة بموطنها السابق بمدينة لندن خاصة لتزيح اللبس الذي كان

يخامر عقول الغربيين ـ لاسيما النساء ـ حول نظرة **الإسلام** إلى **المرأة** ومعاملته لها، وكانت بعنوان **المرأة في الإسلام** ولما كان لها من أثر واسع وما كانت تتميز به من إقناع بالغ ترجمت ونشرت بلغات شتى، من بينها اللغة العربية، لغة الدين الذي اعتنقته، والكتاب الذي اتبعته، وقد تناولت في محاضرتها الجوانب التي يكثر اللغط فيها في حياة المرأة المسلمة، ومن بينها قضية جواز تزوج المسلم بأكثر من امرأة واحدة، وإليكم ما قالته في هذا خاصة:

«يجب على المرء إذن أن ينظر إلى الزواج من واحدة على أنه القاعدة، وإلى تعدد الزوجات على أنه الاستثناء، ومع ذلك فمن الممكن ملاحظة أنه بالرغم من أن نظام تعدد الزوجات قد أسيء استعماله في بعض الأوقات وفي بعض الأماكن إلا أنه تحت ظروف معينة نظام له قيمته، فهو في بعض الحالات قد يعتبر بأنه أهون شرين، وفي حالات أخرى قد يكون ترتيبًا نفعه أكيد.

إن المثل الأكثر وضوحًا على ذلك يظهر في أوقات الحرب حيث يوجد حتمًا عدد كبير من الأرامل والبنات اللاتي قتل أزواجهن أو خطابهن في المعارك، وما على المرء إلا أن يتذكر أعداد الموتى في الحربين العالميتين الأولى والثانية ليدرك أن الملايين من النساء والبنات فقدن أزواجهن وخطابهن وتركن وحيدات من غير دخل أو رعاية أو حماية لهن وأطفالهن، وإذا استمر الادعاء بأن من الممكن تحت هذه الظروف أن يتزوج الرجل من زوجة واحدة، فما هي إذن الاختيارات التي تترك للملايين من النساء الأخريات اللاتي لا أمل عندهن في الحصول على أزواج؟ في هذه الحالة يكون قد حدد بفظاظة لكل منهن أن تختار بين أن تعيش عانسًا عفيفة محرومة من الأطفال، أو أن تصبح خليلة لشخص ما، أي زوجة ثانية غير شرعية ومن غير حقوق قانونية لها ولأطفالها.

إن معظم النساء في الواقع لا يرحبن بأي من هذين الاختيارين طالما أن غالبية النساء كانت

وما زالت تتطلع إلى طمأنينة العيش في كنف زوج شرعي وعائلة.

والحقيقة التي تواجه كل إنسان أنه إذا أعطي النساء اللاتي يعشن تحت هذه الظروف حرية الاختيار، فإن كثيرات منهن تفضلن أن تشاركن غيرهن في أزواجهن كزوجات شرعيات مثلهن بدلًا من أن لا يكون لهن أي شيء بالمرة، وليس من شك في أنه من الأيسر على المرأة تكييف نفسها على العيش كشريكة مع غيرها في زوج واحد، إذا كانت هذه المشاركة معترفا بها في العلن ومشروعة قانونًا عنها إذا كانت مستمرة في السر مصحوبة بمحاولات لخداع الزوجة الأولى.

وليس سرًا أن نظام تعدد الزوجات يمارس بشكل ما في أوروبا وأمريكا على نطاق واسع، والاختلاف هو أنه بينما الرجل الغربي ليس عليه أية التزامات شرعية نحو خليلته الثاني أو الثالثة أو الرابعة، أو نحو أطفالهن منه، فإن الزوج المسلم عليه التزامات شرعية كاملة نحو زوجه الثانية والثالثة والرابعة، ونحو أطفاله منهن.

وتوجد ظروف أخرى لا تتعلق بالحرب، ظروف شخصية، قد يكون الزواج بأكثر من واحدة فيها مفضلًا على غيره من الاختيارات الأخرى المتاحة، وكمثل لذلك عندما تكون الزوجة الأولى مصابة بمرض أو عجز مزمن، ويوجد بطبيعة الحال بعض الأزواج الذين يمكنهم تحمل هذا الوضع، ولكن لا أحد ينكر مخاطراته المحتملة، إن الزواج بالثانية في بعض الحالات يمكن أن يكون حلًا مقبولًا لدى الأطراف الثلاثة.

كذلك توجد حالات تكون فيها الزوجة غير قادرة على الإنجاب في حين يكون الزوج متلهفًا على أطفال من صلبه، في ظل القانون الغربي يجب على الرجل أن يقبل عقم الزوجة إذا استطاع، فإذا لم يستطع يجب عليه أن يجد وسيلة للطلاق والزواج من أخرى، إن هذا يمكن تفاديه في بعض الأحيان إذا وافقت الزوجة على أن يتزوج بعلها من امرأة أو فتاة أخرى تقبل أن تشاركها فيه.

ثم إن هناك حالات أخــرى حيث لا يكون الزواج ناجحًا كل النجاح، والزوج يحب امرأة أخرى، إن هذا الوضع مألوف لدرجة أن أطلق عليه (المثلث الأبدي)، وفي ظــل القوانين الغربية فإن الرجل لا يســتطيع أن يتزوج من المرأة الأخرى من غيــر أن يطلق زوجته، غير أن الزوجة قد لا تكــون راغبة في الطلاق، حقيقة أنها لم تعد تحب زوجها، ولكنها قد لا تزال تحترمه وترغب في دوام الزواج أمانا لها ولأولادها، وبالمثل قد لا تكون المرأة الثانية راغبة في تدمير أسرة الرجل الأول، إن في مثل هذه الحالات قــد توافق المرأتان على الزواج المشترك في كنف نفس الزوج باعتبار أنه أفضــل لهما مــن مواجهة الطــلاق بالنســبة للزوجة الأولى، والعيش كخليلة بالنسبة للمرأة الثانية»[1].

(١) مقال بعنوان (**المرأة في الإســلام**) لعائشة لمو، أصله محاضرة ألقتها في المؤتمر الإسلامي الأول بلندن، ترجمه: د. سامي سلطان، ونشر بمجلة (الأصالــة ـ مجلة ثقافيــة تصدرهــا وزارة التعليم الأصلي والشــؤون الدينية) تصدر بالجزائر، العدد (٣٩ ـ ٤٠) / ذو القعدة ـ ذو الحجة/ ١٣٩٦هـ، الموافق: نوفمبر ـ ديسمبر/ ١٩٧٦م، ص١٢٩ ـ ١٣١.

هذا قول امرأة ولدت ونشـــأت في الغرب فترة من سني حياتها وأكملت هنالك دراستها الجامعية، فهي ـ بلا ريب ـ خبيرة بأوضاع النساء هناك وما يعانينه من مشـــكلات شـــتى، ثم اطلعت على كلام آخر لامرأة مســـلمة أوروبية مـــن ألمانيا الإتحادية وهي الســـيدة **فاطمة هيرين** في مقالها (الحياة العائلية في الإسلام)، فقد قالت حول هذه القضية نفسها:

«أود أن أقول هنا بأنه قبل أن يزوجني المســـجل لزوجي الأوروبي المســـلم حذرني مـــن الزوجات الأربع المســـموح للزوج بهن إن عشنا في يوم من الأيام في دولة إسلامية، وفي الحقيقة لقد أصبت في البداية بفزع لفترة قصيرة، ولكني سرعان ما علمت بأنه بالرغم من السماح في الإسلام باتخاذ أكثر من زوجة فإن ذلك لا يمارس في الواقع إلا نادرًا، وبما أن هذا الحق ـ الذي منح من ناحية استجابة للميل إلى تعدد الزوجات المتأصل ولا شك في الرجال، ومن ناحية أخرى لظروف غيـــر عادية مثل المرض

المزمن أو العقم عند الزوجة الأولى ـ يحرم كليًّا العلاقة الجنسية خارج الزواج، فأنا أعتبره قرارًا حكيمًا جدًا، إن الرجل المسلم إذا وجد نفسه لهذا السبب أو ذاك عاجزًا عن مقاومة دافع الرغبة في أكثر من زوجة لا يكون مضطرًا إلى أن يلجأ إلى أي عمل آثم لإشباع هذا الدافع، ولكنه يستطيع إشباعه تماما بطريقة شرعية، على أن يتحمل المسؤليات المترتبة على ذلك، وهذا في نظري هو النقطة الأساسية، إذ ليس من السهل على رجل أن يتحمل في سبيل إرضاء جشعه نفقات أكثر من زوجة والأطفال الذين ينتجون عن زواجه الآخر أو زيجاته الأخرى، إنه سوف يفكر أكثر من مرتين قبل أن يقدم على ذلك، في حين نجد في المجتمعات التي تفتقر إلى مثل هذه القواعد الحساسة أن من السهل المرعب على الرجل أن يتصل بعد زواجه الأول بامرأة أخرى، ثم يهجرها من غير زواج، تاركًا لها وربما لابنها منه الذل والبؤس بدلًا من الكرامة

الإنسانية، والأمثلة كثيرة أمامنا فلا يحتاج الأمر لزيادة في التعليق على الموضوع»[1].

ولو قارنا بين طرح هاتين المرأتين الأوربيتين الناشئتين في مجتمع يرفض كل الرفض فكرة التعدد، وبين طرح مخلوق ولد في صورة ذكر وعلى هيئة إنسان في بلاد الإسلام من أبوين مسلمين عربيين وتربى في بادئ أمره تربية إسلامية وتغذى بمعارف الإسلام ثم اجتاحته جوائح الإلحاد، وطبعته بطبائع الفساد الخلقي والتعري من كل فضيلة، والتخلي عن كل ما يسمى حياء أو عفة، فشن حملة شعواء على الزواج بأكثر من واحدة مع تحبيبه وتزيينه لعلاقة

(١) مقال بعنوان (**الحياة العائلية في الإسلام**) لفاطمة هيرين ـ كاتبة في المركز الإسلامي في ميونخ، ترجمه: د. سامي سلطان، ونشر بمجلة (الأصالة ـ مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية) تصدر بالجزائر، العدد (٣٤ ـ ٣٥) / جمادى الثاني ـ رجب / ١٣٩٦هـ، الموافق: يونيو ـ يوليو/ ١٩٧٦م، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

جنسية بين رجلين، ودعواه الفاجرة المأفونة أن في ذلك خلاصا من مشكلات الزواج بأكثر من واحدة!! لوجدنا بين طرحيهما وطرحه من الفرق ما هو بين الأرض والسماء، وبين الباطل والحق، وبين الظلمات والنور، وبين الممات والحياة، بل بين السعير والجنة، فماذا عسى أن تجني المرأة من جدوى عندما يكون زوجها ذا علاقة جنسية برجل مثله سواء كان زوجها هو الفاعل أو كان هو المفعول به؟!.

ولكن ما هذا الطرح إلا دليل المسخ والهوي إلى أدنى حضيض من الفساد والاستئسار لأحلك وأوحش وأقبح ظلمات الفكر التي تفرزها الحضارة المادية المعاصرة، واتباع واستطابة لأنتن وأعفن مساوئ الأخلاق فهل من منتبه لهذا؟!.

وكم تسمع وترى من عجائب تتردد أصداؤها من دعاوى هؤلاء الضالين المضلين، فمع ضجيج الحركة النسوية المطالبة بانتزاع القوامة من يد الرجل، الذي

لـــم يكلهـــا الله إليـــه إلا لكونـــه القادر علـــى تحمل مســـئولياتها والنهوض بتكاليفها، ولمـــا في ذلك من صون المرأة والمحافظـــة عليها تجد الأمر يختلف في حال اتباع الشـــهوات بالطـــرق الشـــاذة عندما تكون العلاقة بين رجليـــن وتؤطر في إطار الـــزواج المثلي المستطاب عندهم، فقد حدثني أحد الثقات أنه سمع حوارًا مع اثنين من هؤلاء الممسوخين، يمثل أحدهم دور الرجل والآخـــر دور المرأة، فـــكان مما قاله من يدعى بالزوج منهما أن من حقه أن تكون له الســـلطة على الطرف الآخر بحيث لا يتصرف إلا عن أمره، ولا يخرج من البيت إلا بإذنه، فأجاب الطرف الآخر بأنه يســـره أن يســـلس قياده لزوجه وأن يكون له الطروقة المذللة والتابع المطـــواع..!! فيا للعار.. ويا للخزي.. ويا للمهانـــة.. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ الحج: ١٨، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ البقرة: ٨٥.

التعدد مشروط في الإسلام بالعدل بينهن جميعًا

لم تكن مشروعية تعدد زواج الرجل بأكثر من واحدة في الإسلام أمرًا فوضويًا، وإنما مشروعية ذلك مقيدة بالعدل بين الجميع، وذلك منصوص عليه في آية إباحة التعدد نفسها، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ النساء: ٣، فالرجل قبل أن يقدم على التعدد عليه أن يفكر في حاله وقدراته النفسية والبدنية والمالية ليستبين من نفسه أهليته للتعدد أو عجزه عنها، فقد ثبت من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»[1]، ولذلك كان السلف الصالح يبالغون

(١) أخرجه الطيالسي؛ **مسند الطيالسي**، (رقم: ٢٤٥٤، ص٣٢٢)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٠٠٤٦، ٣٨٩/٩ ـ ٣٩٠)، وابن ماجه؛ =

في محاسبة النفس من أجل توفية جميع نسائهم حقوقهن في العشرة وغيرها، وكفى بحرص رسول الله ﷺ على العدل بين نسائه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» يعنى القلب[1]، وفي **مصنف ابن أبي شيبة** قال: «حدثنا

= **سنن ابن ماجه**، (٩) أبواب النكاح، باب (٤٧) القسمة بين النساء، (رقم: ١٩٦٩، ص٢٥٩٤)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (١٢) النكاح، باب (٣٧، ٣٨) في القسم بين النساء، (رقم: ٢١٣٣، ص١٣٨٠)، والنسائي؛ **سنن النسائي**، كتاب (٣٦) عشرة النساء، باب (٣) ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، (رقم: ٣٣٩٤، ص٢٣٠٧)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب القسم والنشوز، باب (٩) الرجل لا يفارق التي رغب عنها ولا يعدل لها، (رقم: ١٤٧٣٨، ٤٨٥/٧).

(١) أخرجه أبو داود بلفظه؛ **سنن أبي داود**، كتاب (١٢) النكاح، باب (٣٧، ٣٨) في القسم بين النساء، (رقم: ٢١٣٤، ص١٣٨٠)، والبيهقي، **السنن الصغرى**، كتاب النكاح، باب (٥١)، (رقم: ٢٦٠٨، ٩٥/٣)، والكبرى؛ **السنن الكبرى**، كتاب القسم والنشوز، باب (١٠) ما جاء في قوله تعالى: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء}، (رقم: ١٤٧٤٥، ٤٨٧/٧).

محمد بن بكـــر، عن عبيد أبي الحـــرم، عن جابر بن زيد، قال: كانت لي امرأتان وكنت أعدل بينهما حتى في القبل»[1]، وقـــد رواه غيره عنه كمـــا جاء في **الدر المنثور** للإمـــام الســـيوطي: «وأخرج ابن أبي شـــيبة وعبد بن حميـــد وابن المنذر عـــن جابر بن زيد قال: كانت لـــي امرأتان فلقد كنت أعـــدل بينهما حتى أعد القبـــل»[2]، فالحبل ليـــس مطلقا على غاربـــه للذين يرغبون فـــي التعدد، وإنمـــا هم مقيـــدون بحكم الله الصارم.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة؛ **الكتاب المصنف**، كتاب (٩) النكاح، باب (٢٣٠) ما قالوا في العدل بين النسوة إذا اجتمعن ومن كان يفعله، (رقم: ١٧٥٤٣٨، ٣٨/٤).

(٢) الســـيوطي: **الدر المنثور**، ســـورة النســـاء (الآيات ١٢٨ ـ ١٣٤)، ٧١٣/٢، وينظر؛ الألوسي: **روح المعاني**، سورة النساء (الآية ١٢٩)، مج(٣)٢١٢/٥.

هل تعد حضارة تفرز هذه الأقذار جديرة بأن تتبع ويوالى أهلها؟!

إذا كانت هذه الأوباء والأمراض أثرًا من آثار الحضارة المعاصرة، فإنني لا أعجب إلا ممن يعجب بأصحاب هذه الحضارة الزائفة ويجعلهم له قبلة وإمامًا، ويسعى إلى الترويج لأفكارهم الضالة المأفونة ويعتز بولائه لهم وقربه منهم، وما هو إلا دليل ما أصاب هذه النفوس من الأفن وما استولى عليها من الضلال، فإن الله حذر من موالاة أمثالهم أي تحذير، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المائدة: ٥١، ثم أتبع ذلك بيان أن هذه الموالاة لا تنشأ إلا عن مرض مستحكم في القلب مستول على النفس فتنقلب الأمور عند من تلبس بها رأسًا على عقب، حتى يخال أن موالاته لهم تعزه وتصونه وتحميه من نوائب الدهر وعوادِي الزمن، وقد بين الله ذلك كله في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٢ ـ ٥٣،

وبين أن هذه الموالاة منحدر يدفع بمن وقع فيه إلى قيعان الضلال، فلا يزال يهوي فيها إلى أن يرتطم بحطمة الارتداد عن الدين فيتقطع إربًا إربًا، ويتلاشى مزعة مزعة، ويبوء بالشقاء السرمدي في أسوأ مصير، فإن الله في هذا السياق نفسه حذر من الارتداد بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤.

وبين الله في هذا السياق للمسلم من هو وليه الذي يخلص له ولاءه بقوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ المائدة: ٥٥، ثم

بين نتيجة هذه الولاية لله ولرسوله وللمؤمنين خاصة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ المائدة: ٥٦، فما الذي يدع المسلم بعد هذا كله يبحث هنا وهناك عمن يركن إليه ويعول عليه من دون الله تعالى، راجيًا أن يجد في كنفه الأمن والطمأنينة والحفظ والسلام، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ الزمر: ٣٦ ـ ٣٧؟!.

نداء إلى كل ذي ضمير حي

إن هذا الأمر لخطير جدًا، يجب على كل من يحب الخير لنفسه ولأسرته ولمجتمعه ولأمته ولجنسه البشري جميعًا، ولكل ما في الأرض وما عليها أن لا يتهاون به، فإن السكوت عن هذه المنكرات الفاحشة أمر موجب لسخط الله تعالى ولعنته وتعجيل عقوبته، فمن حكمة العلماء قولهم: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»، وقد بين الله سبحانه وتعالى عاقبة السكوت عن المنكرات وعدم الغضب لله تعالى بتغييرها في العديد من الآيات كقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ المائدة: ٧٨ ـ ٧٩، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ الإسراء: ١٦ ـ ١٧، وبين سبحانه أن

النجاة من العذاب لا تكون إلا لمن صدع بكلمة الحق، وحذر من الفساد، إذ قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**إن من قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة فنهاه الناهي تعزيرًا، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأن لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ....﴾ المائدة: ٧٨، والذي نفس محمد بيده**

لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على أيدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم»[1].

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود: أبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٣٦) الملاحم، باب (١٧) الأمر والنهي، (رقم: ٤٣٣٦، ص١٥٣٩)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب آداب القاضي، باب (٣) مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ وَسَائِرَ أَعْمَالِ الْوُلَاةِ مِمَّا يَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، (رقم: ٢٠١٩٦)، وبمعناه عنه أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٣٧١٣، ٥/٤)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٥) ومن سورة المائدة، (رقم: ٣٠٤٧، ص١٩٥٩)، وبمعناه أيضًا أخرجه عن أبي عبيدة (ابن عبد الله بن مسعود مرسلًا) ابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، (٣٦) أبواب الفتن، باب (٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٤٠٠٦، ص٢٧١٧)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٤٤) أبواب تفسير القرآن، باب (٥) ومن سورة المائدة، (رقم: ٣٠٤٨، ص١٩٥٩). والطبراني في الكبير؛ **المعجم الكبير**، (٧٧٢) عبد الله بن مسعود الهذلي، (رقم: ١٠٢٦٨، مج(٥)١٠/١٢٣). وأخرجه من طريق أبي موسى الأشعري بمعناه الطبراني كما في **مجمع الزوائد** (٢٦٩/٧) قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح».

لأجل هذا أهيب من هذا المنبر ـ منبر الدعوة إلى الله تعالى ـ بهذه الأمة خصوصًا، وبجميع المجتمع البشري عمومًا أن ينتبهوا قبل فوات الأوان لخطورة الأمر وما يجب اتخاذه إزاء هذه المحاذير من الحزم والحوطة والتدابير الواقية.

١ ـ أهيب بأمة الإسلام عمومًا أن لا تكون في هذا الأمر أمعة، فإن مسئوليتها أمام الله عظيمة، فقد أوتيت القرآن، وطوقت أمانته، وجعلت شهيدة على الناس جميعًا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٣، وفرض عليها جميعا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤، وما حصر الفلاح في هؤلاء بتعريف المسند والمسند إليه وتوسيط ضمير الفصل بينهما إلا لأن ذلك واجب عيني يتحتم على كل أحد بقدره، وتلك هي مزية الأمة التي يجب أن لا تفرط فيها، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، وبهذا يتحقق الترابط بين الأمة جميعًا رجالها ونسائها، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٧١، وبين الله تعالى جزاءهم على ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة: ٧٢.

والأمة المسلمة تشترك بكل فئاتها في مسئولية درء الفساد وترسيخ الصلاح، وإزهاق الباطل وإحقاق الحق باندراجها جميعًا في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤، فلا يعذر أحد أن يتخلى عن هذا الواجب المقدس، ويؤكد ذلك الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع**

فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[1]، فإن (من) من أدوات العموم فيندرج فيه كل مكلف من هذه الأمة.

(١) أخرجه الطيالسي؛ **مسند الطيالسي**، (رقم: ٢١٩٦، ص٢٩٢)، وأحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١١٣٩٨، ١٥٤/١٠)، وعبد بن حميد؛ **المنتخب**، (١١٥) من مسند أبي سعيد، (رقم: ٩٠٦، ص٢٨٤) ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١) الإيمان، باب (٢٠) بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، (رقم: ٤٩ [١٧٧]، ص٦٨٨)، وابن ماجه؛ **سنن ابن ماجه**، أبواب (٣٦) الفتن، باب (٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٤٠١٣، ص٢٧١٨)، وأبو داود؛ **سنن أبي داود**، كتاب (٢) الصلاة، باب (٢٣٩، ٢٤٢) الخطبة يوم العيد، (رقم: ١١٤٠، ص١٣٠٧)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، أبواب (٣١) الفتن، باب (١١) ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، (رقم: ٢١٧٢، ص١٨٧٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي؛ **سنن النسائي**، كتاب (٤٧) الإيمان، باب (١٧) تفاضل أهل الإيمان، (رقم: ٥٠١١، ص٢٤١١)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (١) الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٣٠٧، ٥٤١/١ ـ ٥٤٢)، وأبو يعلى؛ **مسند أبي يعلى الموصلي**، (رقم: ١٠٠٩، ٢٨٩/٢)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب آداب القاضي، باب (٣) ما يستدل به على أن القضاء وسائر أعمال الولاة مما لا يكون أمرا بالمعروف أو نهيا عن المنكر من فروض الكفايات، (رقم: ٢٠١٧٩، ١٥٤/١٠)، وأبو نعيم في الحلية؛ **حلية الأولياء**، ترجمة (٤٥٥) أحمد بن أبي الحواري، (رقم: ١٤٣٨٧، ٢٧/١٠).

ومن المعلوم أن كل عاقل يحرص على نجاته من الخسران في حياته الدنيوية المحدودة وحياته الأخروية الأبدية والنجاة من الخسران معقود بأمور لا بد من استجماعها جميعًا، فالله سبحانه حكم على جميع الجنس البشري بالخسران ما عدا أولئك الذين جمعوا بين تلك الخصال، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ العصر: ١ ـ ٣، فالناس جميعًا خاسرون دنيا وأخرى إلا من جمع بين هذه الخصال، أما في الدنيا فلأنها سبب الاستقرار النفسي والترابط الجماعي والتعاون على كل خير وعلى دفع كل شر، وأما في الآخرة فلأنها هي وسيلة السعادة الأبدية والفوز بجوار الله تعالى في المقر الأبدي في جنات النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فمن الذي يرضى لنفسه أن يكون مع الخاسرين وأن يفرط في هذا

الربح العظيم الذي لا يوصل إليه إلا بالتحلي بهذه الخصال جميعا؟!.

ومع كون هذه المسئولية مشـــتركة بين جميع الأمة حكامها ومحكوميها، قاداتها وأتباعها، علمائها وعامتها، وأنهم جميعًا ـ مع هجمة هذا الفساد الذي يفتك بالأمم ويأتي على القيـــم ويجتث المـــكارم والأمجاد طارفها وتليدها ـ **يتحتم** عليهم أن لا يألـــوا جهدًا في صد هذا الشر العظيم، ورده على أعقابه حتى لا يبقى له أثر ولا خبر، وذلك بطبيعة الحال يعني توزيع المسئوليات في هذا، بحسب تفاوت الناس في أحوالهم.

أ ـ أولياء أمور المســـلمين الذين اســـتخلفهم الله في الأرض ومهد لهم البلاد وطوع لهم العباد لينظر كيف يعملون

فإن مسئوليتهم بقدر تمكينهم وقد قال تعالى بعد ذكر من أبـــاد من الأمم وأهلك مـــن المجرمين: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

يونس: ١٤، فالكل مجزي بعمله، وعلى من استخلفه الله في الأرض أن يعرف مسئوليته ويوليها حقها، فلا يفرط في أي واجب، لأن مرده إلى الله، والله مجازيه على ما قدم.

ولهذا فإنني أهيب بأولياء أمور المسلمين جميعًا أن يقفوا صفًا واحدًا في درء هذا الشر عن أمتهم وشعوبهم، وأن لا توجد منهم استهانة ولا وني ولا فتور، فإن الأمر جلل والمسئولية جلى والحمل عظيم والناقد خبير بيده الأمر كله وإليه مرد الجميع، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ مريم: ٩٣ ـ ٩٥، فما من أحد يمكن أن ينفلت من قبضة الله تعالى ولا يجد مناصا عن الانقلاب إليه، وسيجزى كل بعمله، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النمل: ٨٩ ـ ٩٠، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ القصص: ٨٤.

والواجب عليهم جميعًا في هذا أن يصدعوا بالحق الذي ائتمنوا عليه، وأن يحرصوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان والسوط والسنان، ليتحقق لهم التمكين في الأرض كما وعدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ الحج: ٤٠ ـ ٤١، وعليهم أن يعلنوا في المحافل الدولية بأن هذا منكر عظيم يقوض الإنسانية بتعجيل فنائها إذ الجنس البشري ـ كغيره من أجناس المخلوقات الحية ـ إنما يتحقق استمرار وجوده على الأرض بالعلاقة الطبيعية بين الذكر والأنثى، لا بين الجنس الواحد، فأنى يتحقق التوالد وبقاء الجنس إن انتقلت العلاقة عن طبيعتها إلى كونها بين الرجل والرجل أو المرأة والمرأة، على أن هذه العلاقة بين نوعي الجنس

البشري إنما يجب أن تؤطر في إطار العفة والفضيلة والكرامة الإنسانية، وذلك بأن تكون مصونة بالزواج الشرعي الذي تتحقق به الغاية المرجوة من بقاء هذا الجنس واستمراره، ليكون الأولاد امتدادًا لوالديهم والخلف مشدودًا إلى سلفه، وذلك بما يتحقق في نظام الحياة الزوجية من القيام بتربية الأولاد تربية مشتركة بين الأبوين كل بحسب طبيعته، فالأم تحمل وتضع وتحضن وترضع، والأب لا يألو جهدًا في الإنفاق والرعاية والتكفل بجميع الحقوق تجاه شريكة حياته وتجاه ثمار علاقته بها، ويجد الناشئ بهذا ما يحتاج إليه من تربية وحنان وعطف الأم الرؤم، ومن رعاية وتوجيه ورقابة الأب الحاني، فينشأ طبيعيًا سليم الطبع زكي الفطرة بعيدًا عن الاضطرابات النفسية والشذوذ السلوكي، مدركًا لقيمة الحياة وما يجب عليه فيها من حقوق لأبويه ولقرابته وأسرته جميعًا ولمجتمعه وأمته وجنسه.

مع الوضع في الحسبان بأن إرخاء العنان وإطلاق الحبل على الغارب، وعدم صون هذه العلاقة بهذه القيود الفطرية لا يؤدي إلى الغاية المرجوة من استمرار الجنس البشري، فإن كانت لأجل قضاء الوطر الشهواني بين الجنسين من غير التفات إلى قيم الفضيلة في حياة الإنسان، لن تكون النتيجة إلا محاولة التخلص من آثار هذا اللقاء إما بموانع الحمل أو الإجهاض لتوقي تبعات التربية وتكاليفها النفسية والمالية، ولن تكون عاقبة ذلك إلا القضاء على الوجود البشري، فهذا كله مما يجب أن تصدع به الحكومات الإسلامية في المحافل الدولية لأجل إيقاظ الضمير العالمي.

ولما كان هذا المرض الذي نشير إليه والذي بدأت بوادره تظهر لدى شذاذ من الناس، علة لا تبقي ولا تذر تأتي على الدين والدنيا، فإن اهتمام أولياء أمور المسلمين يجب أن يكون في إطار شرع الله، بتطبيق حدوده وتنفيذ أحكامه لوقاية الأمة من هذه الأمراض

وآثارها، وهـذا أمر لا بد منه، فـإن الأرض جزء من مملكـة الله تعالى، والله هـو العليم بالنافـع والضار وبأسقام عباده وعلاجها، وقد جاءت أحكامه منسجمة مع هذا كله على أنه نص بـأن الحكم حكمه كما في قولـه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٤٠، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الأنعـام: ٥٧، وقد شـدد الله تعالى في الحكم بغيـر ما أنزل فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المائدة: ٤٥، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المائدة: ٤٧.

ووجه خطابه إلـى نبيه ﷺ محذرًا إيـاه عن ترك الحكم بما أنزل إليه استجابة لأهواء الناس الصادة عن الحق الذي يرضي الله سبحانه فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٩، وحكم تعالى على كل حكم مخالفٍ لحكمه بأنه حكم جاهلي كما هو صريح قوله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠، فهذه هي مسئولية أولي الأمر، عليهم أن يرعوها حق رعايتها، وأن يولوها حسن عنايتهم وأن يتعاونوا عليها جميعًا فإنها من التعاون على البر، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ المائدة: ٢.

ب ـ الآباء والأمهات

على كل منهم أن يربي أولاده ذكورًا وإناثًا على الفضيلة والتقوى، بعد غرس العقيدة الصحيحة في نفوسهم التي تجعلهم في كل أمر يحسبون حسابًا لرضى الله سبحانه وتعالى ولجزائه يوم القيامة على كل خير وشر.

وعليهم بأنفسهم أن يكونوا قدوة صالحة لهم، وأن يحببوا إلى الذكور الرجولة والشهامة والطموح إلى

معالي الأمـــور، والترفع عـــن سفاســـفها، والأنفة من الرذائل، وهي مســـئولية يشـــترك فيها الرجل والمرأة، فكم كانت المرأة في السلف الصالح تدفع بأبنائها إلى ركوب الأهوال من أجل نصرة الحق، ولا ترى غضاضة في أن ترزأ بهم في هذا السبيل، كما روى الطبري «عن شعيب عن ســـيف عن مجالد عن الشـــعبي قال كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية فقالت لبنيها: إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا، ولم تنب بكم البلاد، ولم تقحمكم الســـنة، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، إنكم لبنو رجـــل واحد كمـــا أنكم بنو امـــرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، انطلقوا فاشـــهدوا أول القتال وآخره»[1].

وأمـــا الإناث فـــإن تربيتهن يجـــب أن تكون على الحياء والعفة، والأنفـــة من كل ما يخدش كرامتهن أو

(١) الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ٤١٣/٢.

يــرزأ تقديرهن واحترامهــن بين النــاس، وأن ينمين المواهــب الأنثوية فيهــن ليكن صانعــات للرجال، ومصممات للأجيال، ومنشئات للأبطال، وبهذا يصان النشء عــن الانحدار فــي منزلقات الفســاد بجميع أنواعها، ومنها الشذوذ الذي يحبذه الآن دعاة الفجور، الذين همهم تحويل الشباب إلى مزابل للخبائث يرتع فيها عبــاد الشــهوات، الذين لا يتجــاوز قدرهم قدر الجعلان التي ينعشها الخبث ويزعجها الطيب، ومنها انفلات الفتيات بلا صون ولا حماية حتى يعدن فرائس رخيصة لذئاب البشر المسعورين.

وكم كانــت المــرأة حريصة على صــون عرضها وسمعتها حتى مما يقوله فيها من وقع في غرامها من الغزل العفيــف، فقد روى أبو مســلم الأصفهاني في **الأغاني** بإســناده إلى محمد بن صالح الأسلمي قال: «دخلت عزة علــى عبد الملك بن مروان وقد عجزت فقال لها: أنت عزة كثير؟ فقالت: أنا عزة بنت جميل، قال: أنت التي يقول لك كثير:

لِعَــزّة نــارٌ مــا تَبُــوخُ كأنهــا
إذا مــا رَمَقْناها من البعدِ كوكبُ

فمــا الــذي أعجبــه منــك؟ قالــت: كلا يا أمير المؤمنين، فوالله لقد كنت في عهده أحسن من النار في الليلة القرة، وفي حديث محمد بن صالح الأســلمي فقالت له: أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة، قال: وكانت له ســن ســوداء يخفيها فضحك حتى بــدت، فقالت له: هــذا الذي أردت أن أبديه، فقال لها: هل تروين قول كثير فيك:

وقد زعمتْ أنِّــي تغيَّرتُ بعدَها
ومَنْ ذا الــذي يا عــزَّ لا يَتَغَيّرُ
تغيَّر جســمي والخليقــةُ كالتي
عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بســرِّك مُخْبَرُ

قالت: لا، ولكني أروي قوله:

كأنِّي أنادي صخرةً حين أعرضتْ
من الصمُّ لو تمشِي بها العُصْمُ زَلّتِ

صَفُوحًا فمـــا تلقـــاكَ إلاّ بخيلةً

فمَنْ مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ»[1]

هذا؛ ومـــن المعلوم أن النشء هـــو معيار الأمم في رقيها وانحطاطهـــا، ومقياس تقدمها وتأخرها بحســـب ما يكون عليـــه من علو الهمم، وتوقد العزائم، وعشـــق المكارم، والتقدم في جميع ميادين الشرف، والحرص على إحراز قصبات الســـبق في كل سباق إلى الخير أو عكس ذلك، ولهذا ترى في القرآن الكريم تعظيم شـــأن الفتية الذيـــن يعرجون فـــي مراقي الخير حتـــى يبلغوا رضوان الله تعالى وإن عرضوا أنفسهم للأخطار، كما في وصفه تعالـــى لأهل الكهف بقولـــه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ الكهـف: ١٣، وما حكاه عن وصف قوم إبراهيم عليه السلام له عندما حطـــم أصنامهم أنهم ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الأنبيـــاء: ٦٠، وقولـــه في يحيـــى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مريـــم: ١٢، وممـــن

(١) الأصفهاني: **الأغاني**، ٣٥/٩ ـ ٣٦، دار الفكر ـ بيروت.

وعدهم رسول الله ﷺ أن يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «**شاب نشأ في عباده الله** ﷻ»[1]، ولا ريب أنه بأيدي الشباب الأقوياء دينا وهمة نصر الله تعالى الإسلام، وانبهر بهم خصومهم، فكالوا لهم من الثناء ما عطر المجالس، وأنعش الأرواح، وأوجف قلوب الجبابرة المستكبرين كما ذكر ابن الأثير أن هرقل سأل رجلًا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين فقال: «أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل

(١) رواه الربيع؛ **الجامع الصحيح**، باب (٧) في الولاية والأمارة، (رقم: ٤٨، ص١٩)، وأخرجه من طريق أبي هريرة: أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ٩٦٢٨، ٢٧٥/٩)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (١٠) الأذان، باب (٣٦) من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، (رقم: ٦٦٠، ص٥٣)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (١٢) الزكاة، باب (٣٠) فضل إخفاء الصدقة، (رقم: ١٠٣١، [٢٣٨٠]، ص٨٤٠)، والنسائي في الكبرى؛ **السنن الكبرى**، كتاب (٥٦) الرقائق، (رقم: ١١٧٩٨، ٣٨٧/١٠)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٢١) السير، باب (١) الخلافة والإمارة، (رقم: ٤٤٨٦، ٣٣٨/١٠).

لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني، ليملكن موضع قدمي هاتين»[1].

وروى ابن عساكر بإسناده إلى «من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه من غسان، قال: لما كان المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر، فقال أحدنا لصاحبه: هل لك أن تدخل المدينة فتتسوق من سوقها قبل حصارها؟ فبينا نحن نتسوق إذ أتانا رسول بطريقها اصطراخيه فذهب بنا إليه، فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية، قلنا: نعم، قال: ليذهب أحدكما إلى هؤلاء فليتجسس لنا من خبرهم ورأيهم وليتثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا فلبث لبثا ثم جاءه، فقال: جئتك من عند رجال دقاق، يركبون خيولًا مشاق، أما الليل

(١) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٥٣/٧.

فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا مـــن أصواتهم بالقرآن والذكـر، فالتفت إلى أصحابه، فقال: أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به»[1].

قس هـــؤلاء الفتية الذين أعز الله بهـــم دينه وحفظ بهم حرماته وأقام بهم علـــى من عانده حجته بالفتيان الذين رزئت بهم مجتمعات من هذه الأمة أخيرا وهم كما وصفهم الشاعر الإسلامي محمود غنيم في قوله:

شباب العرب يا زين الشـــباب
ويـــا أشـــبال آســـاد غضـــاب
أرى منكم فريقًا حين يمشـــي
يحك بأنفـــه مـــتن الســـحاب
كليـــث الغاب فـــي صلف وكبر
وليس لـــدى الكريهة ليث غاب

(١) ابن عساكر: **تاريخ دمشـــق**، ٩٦/٢ ـ ٩٧، وينظر؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ١٦/٧.

تفنـــن فـــي محـــاكاة العذارى
وخالفهن في لبـــس النقـــاب
ولا يخشـــى على شيء ويخشى
إذا ثـــار الغبـــار علـــى الثيـــاب

ولا يزال قادة الأمة ورجال الإصلاح فيها يتطلعون في كل عصر إلى جيل من الشباب ينجلي ليل الجهل والجاهلية، ويهزم ديجور الظلـــم والجور ببزوغ بدر محياه، وإشـــراق أنوار طلعتـــه، كمـــا كان من رائد الإصلاح في القرن الثاني عشر بعمان الإمام المحقق ســـعيد بن خلفان الخليلي، الذي جمـــع بين تحقيق الأحكام الشـــرعية والجهاد بالنفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله، فتراه في وحشته من طول ليل الجور البهيـــم يتطلع إلـــى صبح بهيـــج من هـــؤلاء الفتية الصادقين في إيمانهم المنيبين إلى ربهم الخاشعين لله تعالى بحســـن عبادته في آناء الليل وأطراف النهار، فقد صور في إحدى قصائده المآســـي التي تكابدها

الأمة بسبب فقدان العدل والإنصاف، وانحسار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفشو الظلم في الناس، إذ امتدت أيديه الباطشة إلى اليتامى والمساكين والأرامل فسلبتهم لقمة العيش التي تسد مسغبتهم، وما يواري أجسامهم النحيلة البالية من أطمار الثياب التي تقيهم سَمُوم الحر في الصيف وزمهرير البرد في الشتاء، مع التطاول على شرع الله بما لم يأذن به الله، وهتك حرمات الإنسانية بسفك الدماء المحرمة، وارتكاب الفواحش المحظورة، وكان مما قاله في ذلك:

فيالك دهرًا قد شجتني خطوبه
به عصفت للجور نكباء زعزع
تبدلت الأحكامُ فيه وعطلت
حدود وسيم الخسف ما الله يرفع
ونال به أهل الديانة والتقى
هوان به عز الجهول المضيعُ

تبـــاح دمـــاء المســـلمين ظلامة
ولا ملجأ يحمـــي ضعيفًا ويمنع
وتنتهب الأمـــوال في كل محفل
ولا قائم بالعـــدل عن ذاك يدفع
فكم فيـــه مظلوم إذا مـــد طرفه
تشكى وأبواب الســـماء تقعقعُ
وأرملـــة جنـــت بفـــرط بكائها
لقلـــة حاميهـــا إلى الله تضـــرع
كأن اليتامى والمســـاكين جيفة
للحمانهـــا تلك النوابح تســـفع
تكاد بقاع الأرض تشكو من الأذى
لو استنطقت كادت بذاك تصدع
فكم من بيوت الله أضحى خرابة
وكانت بيـــوت الله بالذكر ترفع
وكم قد غدت بالكفر والفسق معقلًا
بها أمس قد كان المشايخ تركع

تظاهر فيهـــا بالفواحـــش جهرة
رعاع لجمع المنكرات تجمعوا
قد اقتطعوا نهج السبيل وفعلهم
بناديهم أمـــر من الكفـــر أفظع
وقد أمـــروا من مترفيهـــم أكابرًا
بهم جمع غوغاء الهوى قد تشجعوا
مشائيم عن فرط الهدى بهم عمى
وآذانهـــم وقرٌ بها وهي تســـمع
قد استكبروا عن شرعة الله واعتدوا
علوًا غلـــوًا والزمـــان يضعضع
فلا غرّ إن أضحى بك الدين دارسًا
فللـــه أمـــرٌ فيـــك قـــد يتوقـــعُ

ثم أبدى رجاءه لوعـــد الله أن يبزغ نوره فيبدد هذه الظلمات، ويأتي باليســـر بعد العســـر، وبالرخاء بعد الشـــدة، ويقوم قائم الحـــق فيعيد إلى المســـتضعفين حقوقهم، ويرد المستكبرين إلى أقدارهم، فقال:

عســـى أن يكيـــد الله للدين مرةً
يبور بها مـــن كيدهم مـــا ينوعُ
لعل زمـــان الفتح تبـــدو نجومه
وأقماره بالعـــدل والفضل تطلع
فمـــا فتنـــة تشـــتد إلا تفرجت
ولله لطـــف عرفـــه يتضـــوعُ
وما ينتهي شـــيء إلى حد طوره
ســـوى أنه من بعد ذلك يرجع
فيالك ليلًا قد دجـــى فتكدرت
شموس الضحى فالصبح أسود أسفعُ

وكان أمله في بزوغ هذا الفجر معقودًا بهمة فتية صدق آمنـــوا بالله فزادهـــم هدى، وامتـــلأت حنايا صدورهـــم غيرة على دينـــه ورحمة بعبـــاده ورجاء لوعده وخشـــية من وعيده، كما عبر عن ذلك بهذه الصياغة البليغة:

ألا تنجلي يا ليل عن صبح فتية
كرام بهم قد رد للعدل يوشعُ
تظاهر أنــواع المعالــي عليهم
وألويــة العــز الجلالــيّ ترفعُ
أشداء يوم البأس في حومة الوغى
ذوو رحمــوت بينهــم لا تقطعُ
شــراة لدين الله بيعت نفوســهم
وما لهــم في غير ذلــك مطمعُ
قد انتدبوا في نصـرة الله فاعتلت
بهم غرر الدين الحنيفي تســطعُ
وجوه هدى شم الأنوف مشايخ
لربهم قــد أخبتوا وتضــرعوا
مخابيت أحبــارٍ رواســي تبتلٍ
نحورهم للحلــم والعلم موضعُ
بهم تشـرق الدنيا ويستوسق العلا
وتستمطر الأنواء والغوث أجمع

كأن مثانـــي ذكرهم فـــي تهجد
مزاميـــر داود بها قد تســـجعوا
كأن بهم من نشـــوة أذن عاشق
تتوق لما يشـــدو حبيـــب ممنعُ
كأن الثكالـــى منهم فـــي نياحةٍ
وأوصالهـــم مـــن خيفـــة تتخلعُ
كأن حطام الأرض من لحم ميتةٍ
فهم عنه فـــي عليائهم قد ترفعوا
كأن من الشهد المصفى لقاءهم
لســـيدهم يومًا ألحوا وأســـرعوا
كأن المنايـــا منيـــةٌ لقلوبهـــم
فما كاد يثني القوم بالحتف مصـرع
تراهم إذا مـــا كان يـــوم كريهة
أسود شرىً بالمرهفات تدرعوا
أساطين في يوم اللقا لا تهولهم
بروق وغىً فيها الشـــجاع مروعُ

يخوضون دأماء المنايا بواسـمًا
كأنهم فـي جنـة الخلـد رتعُ
قد اطّرحوا لبس الـدروع كأنها
لهم من زكيات المناصب أدرعُ

وكم تعاقب أمثال هؤلاء الفتية الذين كانوا أرسـخ ثباتًا فـي الحق، وأعظـم تحديًا للباطـل وحزبه من الأطواد الشم الرواسخ، التي لا تزعزعها الزعازع، ولا تلينها النوائب، كأولئك الذين فاخر بهم شاعر النهضة الإسلامية طود الأدب الشـامخ وبحر الشريعة الزاخر أبو مسـلم البهلاني عندما اطلع علـى قصيدة لأحد شـعراء العرب ينعى فيها على شـباب العرب خاصة وشـباب المسـلمين عامة خمود عزيمتهـم، وركود همتهم، وتركهم المجال الفسـيح لغيرهم من الأمم، وما لهم من شـأن إلا الانقياد وراءها، يسـيرون مع الركب حيثما اتجه وسار، فرد عليه أبو مسلم بقصيدة عصماء جاء فيها:

ألا لبَّيــكَ يــا صــوْتَ المعالي
لقــد أســمعتَ أحيــاءَ الرِّجالِ
أجَابَــكَ ســادَةٌ نُجُــبٌ كِــرامٌ
طِوالُ العــزْمِ بالبِيــضِ الطِّوالِ
خِفَــافٌ كالصواعِقِ إنْ يَشُــدّوا
جبــالٌ فــي حُلومِهــمِ الثِّقــالِ
مـعـاقِـلُـهـم جِـيـادٌ فَـنَّـقُـوهـا
مَسَــارحُهُنَّ حومــاتُ النِّــزالِ
تعلَّمْــنَ التقــارُعَ مــن قديــمٍ
فهنَّ مــع التقــارُعِ في شِــكالِ
فــإنْ تســألْ بهــمْ فهُمُ سَــراةٌ
تربّــوا بيــن قيصُــومٍ وضــالِ
رضــاعُ وليدهم بــدَمِ الأعادي
ويحيا فــي الرضاع بــلا فصالِ
إذا استصــرختهم شــبُّوا سعيرًا
وصَــخَّ النجــمَ قعقعــةُ النِّصالِ

مســاعيرُ الحُروبِ لهــم أجيجُ
إذا احتدمَــتْ حَميَّــاتِ الرِّجالِ
مصاعِبُ تصعَــقُ الأبطال منهم
رغائبُهــم بأطــرافِ العوالــي
إذا هجموا رأيــتَ الفجرَ يجري
ببارقــةِ الصَّــوارمِ فــي الليالي
تروعُــك فــي زحُوفِهــمُ رُجُومٌ
مــن السُّــمُرِ المثقَّــفِ والنِّبالِ
جَحاجِحُ من بنــي قحطانَ صِيدٌ
ومــن عدنــانَ آســادُ القِتــالِ
رأوا مــا حــلَّ بالأوطــان خزيًا
يســارعُ بالفظائــعِ والوَبــالِ
وخصْــمُ اللهِ جــزّارٌ شــنيعٌ
يُضحِّــي بالدِّيانــةِ لا يُبالــي
رأوا أموالَهــم نهبًــا هنيئًــا
وكُلَّ محــرَّمٍ عيــنَ الحــلالِ

رأوا أملاكـهم صـــارت سبايا
مـوثـقـــة الجـــوارح بالحـبال
فأحـرقهـــم مـــن الإيمان نور
بـوارقـه عـــلى القضب الصقال
وغـــاروا غـيـــرة لله جـــاءت
إلى الـبـاغـــي عـليهـم بـالنكال
فأصـبحـــت المـمالك في أمان
وأصبـحت الـــعدالة في جلال
تفضَّـــلْ بالزيـــارةِ فـــي عُمـــانٍ
تجـــدْ أفعـــالَ أحـــرارِ الرِّجـــالِ
تجدْ ما شـــئتَ من مجدٍ وفضلٍ
وأحســـابٍ عزيـــزاتِ المثـــالِ
تجـــدْ مـــا قسَّـــمته مـــن المنايا
خيـــولُ اللهِ في حِـــزبِ الضلالِ
تجـــدْ من هيبةِ الإســـلامِ شـــأنًا
عليـــه الكفـــرُ مُبيـــضُّ القـــذالِ

تجدْ همـــمَ الرِّجـــالِ مصمِّماتٍ
بثـــأرِ الدِّيـــنِ تُرخِـــصُ كلَّ غالِ
قطينَ الشـــرقِ نمتُم نـــومَ غيدٍ
فنبَّهكـــم صناديـــدُ الكمـــالِ
فقومـــوا عندنـــا أو لا فنامُـــوا
هنيئًـــا بيـــن ربّـــاتِ الحِجَـــالِ
ســـنأخذُ حقَّكم ونـــذودُ عنكم
ذيـــادًا باليميـــنِ وبالشـــمالِ
ويـــدْركُ فهمُكـــم أنَّـــا قليـــلٌ
تكاثـــر بالحميـــدِ مـــن الخلالِ
وتعترفـــون أنَّ العـــرب قـــومٌ
قديمًا أعْبَـــدوا صُهْبَ السِّـــبالِ
وقـــد وافاكـــمُ زمَـــنٌ جديـــدٌ
ووافتكم بـــه السُّـــنَنُ الخوالي
يـــردُّ الحـــقَّ فيكـــم مُشـــمَخرًّا
ويُخزي الظلـــمَ خزي أبي رغالِ

بأســـيافِ الغُبيـــراءِ المواضـــي
ستخضـــرُّ الأســـافِلُ والأعالي
ويعلـــمُ عَالَـــمُ الدنيـــا بأنَّـــا
بضوضـــاءِ الفخافِـــخِ لا نُبالـــي
وأن مطامـــع الأوغـــاد فينـــا
ســـترجع وهـــي فارغـــة القلال
ذروهـــم يكثـــرون كمـــا أرادوا
بأقوى مـــا يكون مـــن المحال
ستهشـــم فرقهـــم منـــا صخور
صـــلاب لا تليـــن بـــكل حال
وإن كنـــا علـــى عـــدد قليـــل
فما نصـــر القليل مـــن المحال
ســـنعقدها عليهـــم عقد شـــؤم
ويوم الحشـــر يـــوم الانحلال
بأســـياف قديمـــات المزايـــا
مخلـــدة المفاخـــر والفعـــال

تصــول بهــا أســود بنــي نزار
ومــن قحطــان أقيــال النــزال
فإن شــئت العيــان فقــم إلينا
ترى الأفعــال مصــداق المقال
ولا تحفــل بمــا يهــذون فيــه
فليــس الحق فــي قيــل وقال
ومــا نصــر الحقيقــةَ مثل حر
منيــر الصــدر متقــد الخصال
فكــن أنــت النصير لهــا وبادر
تقابلــك العواطــل والحوالــي
تشــاهد كيف حرف الضاد يعلو
بــلا شــمس يعيــن ولا هلال
تشــاهد عصبــة التقــوى هياما
بحــب الله لا عــزف الموالــي
تشــاهد أن في العــرب البقايا
وللباقيــن أقــلام الجــدال

تشـــاهد أننـــا خلـــف كريـــم
لأصحـــاب النبي ومـــن يوالي
فـــلا تقنـــع بســـمع دون عيـــن
ومـــا عيـــن الحقيقـــة كالخيال

ولم يكن ما يشير إليه إلا من صنيع أبطال معظمهم من جيل الشباب، تشبعوا بالقرآن وبالسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فكانوا منارات هدى، ومعالم بر وصلاح واســتقامة، وبحور عرفان، وأطواد تقى وإيمان، وقد عرفوا قيمة الدنيـــا والآخرة فلذلك ضحوا بدنياهـــم لأجل أخراهم، وقد نـــال كثير منهم شرف كلتا الحسنيين النصر على عدو الله والشهادة في سبيله.

وقد رأينا شاعر الشـــباب الإسلامي هاشم الرفاعي يشيد بالأمجاد العظيمة لهذه الأمة في ماضيها العظيم، ويشيد بالدور الأصيل الذي قام به الشباب المسلم في بناء تلك الأمجاد والمحافظة عليها، ويســـكب عبراته

الحرى أسفًا وأسى على انطواء تلك الأمجاد كأنها لم تكن منشورة في يوم، وذلك في قصيدته العصماء التي هي بعنوان (شباب الإسلام)، التي نظمها وألقاها في عام وفاته قبل طعنة عدوانية أودت بحياته من شيوعي حقود، ولم يكن تجاوز عمره أربعة وعشرين ربيعًا، وها هي تلك القصيدة بنصها:

ملكنا هذه الدنيا قرونا
وأخضعها جدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسى الزمان ولا نسينا
حملناها سيوفا لامعات
غداة الروع تأبى أن تلينا
إذا خرجت من الأغماد يومًا
رأيت الهول والفتح المبينا
وكنا حين يرمينا أناس
نؤدبهم أباة قادرينا

وكـــنا حيـــن يأخـــذنا ولـــي
بطغيـــان ندوس لـــه الجبـــينا
تفيـــض قلوبنـــا بالهدي بأســـا
فما نغضـــي عن الظلم الجفونا
ومـــا فتـــئ الزمان يـــدور حتى
مضـــى بالمجـــد قوم آخرونا
وأصبح لا يرى في الركب قومي
وقـــد عاشـــوا أئمتـــه ســـنينا
وآلمـــني وآلـــم كل حـــر
ســـؤال الدهر أين المســـلمون؟
ترى هل يرجـــع الماضي فإني
أذوب لذلـــك المـــاضي حنينا
بنينا حقبـــة فـــي الأرض ملكا
يدعمـــه شـــباب طامحـــونا
شـــباب ذللـــوا ســـبل المعالي
وما عرفوا ســـوى الإسلام دينا

تعهدهـــم فأنبـــتهم نبـــاتا
كريمـــا طاب فـــي الدنيا غصونا
هـــم وردوا الحيـــاض مباركات
فســـالت عندهم مـــاء معـــينا
إذا شـــهدوا الوغى كانـــوا كماة
يدكـــون المعـــاقل والحصونا
وإن جـــن المســـاء فـــلا تراهم
مـــن الإشـــفاق إلا ســـاجدينا
شـــباب لم تحطـــمه الليالـــي
ولم يســـلم الى الخصم العرينا
ولم تشـــهدهم الأقداح يومـــا
وقد ملـــؤوا نواديهم مـــجونا
ومـــا عـــرفوا الأغاني مائعات
ولكـــن العـــلا صنعت لحـونا
ولـــم يتشـــدقوا بقشـــورِ علْمٍ
ولـــم يتقلّـــبوا في الملحدينا

وقد دانـــوا بأعظمهم نضـــالا
وعلمـــا، لا بأجرئهـــم عيونا
فيتحـــدون أخـــلاقا عذابـــا
ويأتلفـــون مجتمعـــا رزيـــنا
فما عرفـــوا الخلاعة فـــي بنات
ولا عرفـــوا الميوعة في بنينـــا
ولـــم يتبجحـــوا في كل أمـــر
خطـــير، كـــي يقـــال مثقفونا
كذلك أخـــرج الإســـلام قومي
شبابا مخلصـــا حـــرا أمـــينا
وعلمه الكـــرامة كيف تبـــنى
فيأبـــى أن يقيّـــد أو يهـــونا
دعـــوني مـــن أمـــاني كاذبات
فلـــم أجـــد المـــنى إلا ظنونًا
وهاتوا لي من الإيمـــان نـــورا
وقـــووا بيـــن جنبـــيّ اليقـــينا

أمـــد يدي فأنتــزع الرواســي
وأبني المجـــد مؤتلقًـــا مكينا

وقد نشـــأ الشـــاعر من بداية تكوينه علـــى رباطة الجاش وقـــوة الإرادة ومضي العزم، ففـــي حال بداية تحصيله عندما كان في المعهد الديني بالزقاقيق التابع للأزهر الشريف قاد مسيرة سلمية للمطالبة بالإصلاح وعمره خمســـة عشـــر عامًا، فوُوجِهت بإطـــلاق النار وأصيب برصاصة كادت تودي بحياته، وفصل على أثر ذلك من المعهد، ولكن تحولـــت الأيام ودارت دورة لصالحه فرجع إلـــى المعهد وهو ثابت العزم راســـخ القدم رابط الجاش، لم يطأطئ رأســـه لصروف الدهر ولم يَحْنِ ظهره لنوائـــب الأيام، فقال معربًا عن فرحته بالنصر والرجوع إلى معهده، ومعرضًا بشـــيخ المعهد الذي طرده منه:

رجعنا وخاب المنـــذر المتوعد
وعدنا بعـــون الله والعود أحمد

خرجنا رجالا يعرف الكل بأسهم
وجئنا وفي أضلاعنا العزم موقد
ظلمنا فما لانـــت لنا من عريكة
ولا نال من أسد الشـرى المتأسد
فقولوا لشيخ السوء لا بورك اسمه
ولا عاش باســـم العلم فينا يقيد
أبالحق أم بالزور تمشـي هنا؟ وهل
إلى العدل أو للظلم تهدي وترشد
وهل جئت شيخا أم ترى جئت غازيا
فأنت على الطلاب صخر وجلمد
أفي شرعة الإسلام هذا الذي نرى
من الجور أو هذا الأذى المتعمد؟
أم هديـــه أن يحرم العلـــم فتية
فهذا أخـــو نأي وهذا مشـــرد؟
وما كان منهم مـــن أتى بجريرة
ولا ساعة الإضراب مدت لهم يد

وأقسم لو شئناه ما كنت بالذي
يكيـــد لنـــا أو يعتليـــك المهند
لحـــا الله أعوانا لئامـــا تجمعوا
هم الذئب عذرا والرياء المجسد
ترى بينهم من يرتدي زي عالم
فقيه وفـــي أثوابـــه الجهل يرقد
وتحســـبه عند الملاقاة مصلحا
ولكنـــه فينـــا خبيـــث ومفســـد
ذليل يرى (زغلـــول) ربًّا معظما
يكاد لـــه خوفا يصلي ويســـجد
وينصب فوق الرأس منه عمامة
تشـــع بياضا بينما القلب أسود
ولـــم ألقـــه إلا خئونا وواشـــيا
إلى منصب بالدس يرمي ويقصد
ويظهـــر فينـــا عالمـــا متعبـــدا
لقد ضل هـــذا العالـــم المتعبد

يلوموننا أن لم نــدع عزمته لنا
ألا خاب لاحينـا وخاب المفند
لقد حرمونا حقبة من دروســنا
فما خاننا أو غــاب عنا التجلد
وقالــوا عن الإبعاد هــذا عقوبة
وللبعد عنهم معشــر السوء أسعد
فما سرني أن عدت للدرس ثانيا
ولا ســاءني أن قيل: أنت مبعد
تمر بنــا الأيــام والعهــد بيننا
على الثــأر من جلادنـا يتجدد
دع الدهر يمضــي والليالي تنقضــي
فنحن على الأيــام للقوم رصد
وإن كان هذا اليوم قد ساء حظنا
فصبرا إلى ما سوف يأتي به الغد
إذا نحن لم نثــأر لما قد أصابنا
فلا ضمنا في حجرة الدرس معهد

هذه الخصال هي التي يجب أن يتحلى بها الشباب المسلم في كل مكان، لصون الأوطان واستعادة الأمجاد والسؤدد، وبث الخير في الأرض، وأين تلك الخصال من شباب هانت عليه رجولته فضحى بها لأجل تحقيق شهوة دنيئة شاذة، يتقزز منها كل من كان سوي الطبع سليم الفطرة حتى ولو كان من الحيوانات العجم، فضلًا عن الإنسان الذي كرمه الله تعالى وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا وأوجده في الأرض ليكون له فيها خليفة ينوء بتكاليفه ويشرف باستخلافه؟

وكم ترى من بون شاسع بين وضع هذه الأمة عندما كانت تقود الأمم إلى الخير وتسوق الناس إلى الحق، وبين وضعها اليوم عندما أصبحت تقاد إلى الشر وتساق إلى الباطل وتدفع إلى مهاوي الانحطاط؟ إن نظرة إلى واقع الأمة المشرق بالأمس وواقعها المظلم اليوم تدع كل مسلم غيور يذوب حسرة ويتقطع ألمًا، فكم من حر كادت تودي به الحسرة بين

ذكريات الماضي البهي وآلام الحاضر الشائه، ناهيك ما صاغه من هذه المشاعر الشاعر الإسلامي الكبير محمود غنيم في قصيدته العصماء (مجد الإسلام: وقفة على طلل)[1] التي جاء فيها:

مالي وللنجم يرعاني وأرعاهُ
أمسى كلانا يعافُ الغمضَ جفناهُ
لي فيكَ يا ليلُ آهاتٌ أردِّدُها
أوَّاهُ لو أجْدت المحزونَ أواه
لا تحسبَنِّي محبًا يشتكي وَصبًا
أهْونْ بما في سبيل الحب ألقاه
إني تذكرتُ والذكرى مُؤَرِّقةٌ
مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه
ويحَ العروبة كان الكونُ مسرحها
فأصبَحت تتوارى في زواياه

(١) محمود غنيم: **صرخة في واد**، ص٧٨ ـ ٨١، مطبعة الاعتماد ـ مصر.

أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد
تجدْهُ كالطيــر مقصوصًا جناحاه
كــم صرفَتْنَا يــدٌ كنّا نصــرِّفها
وبــات يملكنــا شــعبٌ ملكناه
كم بالعراق وكم بالـهند ذو شجنٍ
شــكا فردَّدَت الأهرامُ شــكواه
بني العمومةِ إن القرح مسّــكم
ومسَّــنا نحن في الآلام أشــباه
يا أهل يثرب أدمــت مُقْلَتَيَّ يدٌ
بدريةٌ تســأل المصــريَّ جدواه
الدينُ والضادُ من مغناكم انبعثا
فطبَّقــا الشــرقَ أقصــاه وأدناه
لســنا نمدّ لكــم أيماننــا صلةً
لكنمــا هــو دَيْــن مــا قضيناه
هل كان دِيْن ابنِ عدنانٍ سوى فلق
شقّ الوجود وليلُ الجهل يغشاه

هي الحنيفةُ عينُ اللـــه تكلؤها
فكلما حاولوا تشـــويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزةً
يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياه
سنُّوا المساواة لا عُرْبٌ ولا عجَمٌ
مـــا لامـــرىء شـــرفٌ إلا بتقواه
يا من رأى عُمرًا تكســـوه بردتُه
والزيتُ أدْمٌ لـــــه والكوخُ مأواه
يهتز كســـــرى على كرسيِّه فرَقًا
من بأســـه وملوكُ الرومِ تخشاه
استرشد الغربُ بالماضي فأرشده
ونحـــن كان لنـــا ماضٍ نســـيناه
إنا مشَيْنا وَرَاءَ الغرب نقبس من
ضيائـــه فأصابتنـــا شـــظاياه
بالله سل خلف بحر الروم عن عرَبٍ
بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا

وفي خاتمة المطاف لم يجد إلى أن يضرع إلى الله قائلا:

لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعا
فامنـــن علينا براع أنـــت ترضاه
راع يعيد إلى الإســـلام ســـيرته
يرعـــى بنيـــه وعيـــن الله ترعاه

جـ ـ المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية

فهي مســـئولة عـــن توجيه الناشـــئة إلـــى الطريقة المثلى، وتجنيبها الوقوع في هذه المهاوي التي تأتي علـــى دينهم ودنياهـــم، بحيث لا يكـــون قدرهم بين الناس إلا قدر الخنافس القذرة والحشـــرات المؤذية، وعليها أن تسلط الضوء على هذه الدعوات الزائغة عن الحق القاضية على الكرامة، المبيدة للمروءة، وتأصيل تربية هذه الناشـــئة بغرس العقيدة الإسلامية الناصعة، التي تعرج بهم في أوج الكمال إلـــى معالي الأمور، وترقى بهـــم إلى المقامـــات العلى عند الله ســـبحانه

وتعالى، وتقيهم الانحدار في حضيض الرذائل، وتشمخ بهم إلى أوج الفضائل.

د ـ المرشدون والموجهون من الفقهاء والوعاظ وخطباء المنابر وأئمة المساجد

فإنهم جميعًا مطالبون ببذل أقصى جهدهم في مواجهة هذه الرذائل، وانتشال الناس منها، والرقي بهم إلى علياء النزاهة والعفة والطهارة.

وأوجه من هذا المنبر كلمتي لعلماء الشريعة الذين ائتمنهم الله دينه وأخذ عليهم العهد أن يبينوا للناس ما أوتوه من العلم ولا يكتموه، وأن يكونوا لهم في الخير قادة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم، وأن تكون لهم في هذه الظروف الحالكة وأمام هذه التحديات المزعجة كلمة حق تقربهم إلى الله، وتباعدهم عن سخطه وعذابه، فهم الذين تصان بهم المجتمعات عن الفساد كما قيل:

يا شـــيوخ العُرب يـــا ملح البلد

من يُصلِحُ الملحَ إذا الملحُ فسد

فمن قيامهم بأمر الله تعالى ورعايتهم لأمانته صدوعهم بالحق لدرء كل شر وقطع دابر كل مفسدة، فإن العلم إن لم يصحبه عمل صالح مصون بالغيـــرة على حرمات الله تعالى والحفاظ على أمانته كان وبالًا على حامله.

وما العلم إلا ما أردت به التقى

وإلا فخـــطء مـــا حملـــت كبير

فكم حامل علمًا وفي الجهل لو درى

ســـلامته ممـــا إليـــه يصيـــر

وما أنت بالعلـــم الغزير بمفلح

ومالـــك جد فـــي التقـــاة غزير

وحســـبك علمًا نافعًا فرد حكمة

بها الســـر حي والجوارح نور

تعلّـــم لوجـــه الله وأعمل لوجهه

وثق منـــه بالموعـــود فهو جدير

تعــرض لتوفيــق الإلــه بحبــه
ودع ما ســواه فالجميع قشــور
هو الشــأن بالتوفيق تزكو ثماره
ومتجــره والله ليــس يبــور
كأيٍّ رأينــا عالمًــا ضل ســعيه
وضــل بــه جــم هنــاك غفير
معارفــه بحر ويصــرف وجهَه
إلى الباطل الخذلانُ وهو بصير
وأفلــح بالتوفيق قــوم نصيبهم
من العلم في رأي العيون حقير
وتلك حظــوظ للإرادة قســمها
وحكمــة مــن يختارنــا ويخير

وأذكر الجميع بأن الناس في الحياة كركاب سفينة سلامتهم جميعا مرهونة بالحفاظ على سفينتهم من أن يعبث بها عابث فيخرقها، فإن رأوا ســفيها يهم بذلك كان عليهم جميعــا أن يقبضوا على يديــه لمنعه من

العبث وإلا هلكوا جميعا، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»[1].

(١) أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٨٢٧٧، ١٤٩/١٤ ـ ١٥٠)، والبخاري؛ **صحيح البخاري**، كتاب (٤٧) الشركة، باب (٦) هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه؟، (رقم: ٢٤٩٣، ص١٩٦)، والترمذي؛ **سنن الترمذي**، (٣١) أبواب الفتن، باب (١٢) منه، (رقم: ٢١٧٣، ص١٨٧٠) وقال: «حسن صحيح»، والبزار؛ **مسند البزار**، (رقم: ٣٢٩٨، ٢٣٧/٨)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (٦) البر والإحسان، باب (١) الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (رقم: ٢٩٧، ٥٣٢/١)، والبيهقي؛ **السنن الكبرى**، كتاب العتق، باب (١٤) إثبات استعمال القرعة، (رقم: ٢١٤١٠، ٤٨٦/١٠).

٢ ـ أنادي من هذا المنبر ـ باسم الإنسانية والكرامة البشرية ـ جميع المجتمع البشـــري الذي أصبح الآن كســـكان قرية صغيرة في تقاربه وتسارع انتقال عدوى أمراضه الفتاكة فيما بينه كســـريان النار في الهشـــيم، أناديه مهيبا به أن يتدارك إنقاذ نفســـه وإنقاذ الإنسانية من هذه الأوباء التي لا تبقي ولا تذر، فللإنسان كرامة وهي مرهونة بترفعه عن الدنايا وأنفته عن التمرغ في أوحال الأقذار، وأخص بهذا النداء المجتمع الغربي، الذي أصبح بقواه وجبروته وســـطوته ونفوذه يصرف العالم البشري ويقوده، وأصبحت المجتمعات البشرية من أطراف الأرض تنظر إلى كل ما يصدر عنه فتتفنن فـــي محاكاته انبهـــارًا بمظاهـــر حضارتـــه التي تدفع الإنسانية إلى حافة الهلاك ـ والعياذ بالله ـ، فعلى ذلك المجتمع أن ينقذ نفســـه وأن ينقذ هـــذه القطعان من الناس اللاهثين وراءه غير عابئين بســـلامة أو هلاك، وكم في عبر الحاضر والغابـــر ما يدعو العالم الغربي خاصة والعوالم الإنسانية عامة إلى التفكير والاعتبار.

فكم من عظة صامتة هي أبلغ من كل معبر وأفصح من كل ناطق تدعو إلى الحذر والفرار إلى الله تعالى من تحديه بهذه الجرائم، التي تستنزل سخطه وتستعجل عذابه، حسبنا ما عايشناه جميعًا في هذه الكرة الأرضية منذ أكثر من عام من وباء عم الأرض بأطرافها، وعجزت جميع المهارات الإنسانية وخبرات الأمم المتقدمة أن تبطئ سيره، فضلا عن أن تمنع انتشاره، فهو يسري كما يسري الظلام في الفضاء، وقد تطأطأت أمامه هامات المستكبرين، وتلاشت بين يديه تدابير الخبراء الدهاة، وما هو إلا فيروس لا تبصره العين، وليس له مكان بين مقاييس التقدير، لا في حجمه ولا في وزنه.

ومع ذلك خارت هذه القوى كلها بين يديه، لأنه من جند الله تعالى، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر: ٣١، فإذا كان هذا الجندي الصغير هزم هذه الأمم كلها وحارت في الاحتيال عليه فما بالك بجنود الله تعالى في السماوات وفي الأرض،

التي هي أعظم من أن تقدر بمقـــدار، وأكثر من أن تحصى بعدد.

وكم بجانب هذا النذير من نذر تتوالى تباعًا آخذًا بعضها بحجزة بعض، كما تتوالى حبات الخرز عندما ينفرط ســـلكها، وكما تتوالى قطرات الماء من السقاء عندما يتراخى وكاؤه، فكم أهلكت الفيضانات وأبادت الأعاصير، وكم أتلفـــت الحرائق والزلازل وغيرها من النوازل مـــن نفوس شـــتى لا تحصى، وأبـــادت من الأمـــوال ما لا يحويـــه الحصـــر، وأتت علـــى الديار فغادرتها بلاقـــع، وقد بين الله تعالى أن من ســـنته أن يوالي النذر إلى المســـتكبرين عن طاعتـــه، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهـــم العذاب، وإن أصروا واســـتكبروا أمهلهم اســـتدراجًا حتى ينسوا ما أنذروا به كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣، وثَمّ يأخذهم بغتة بعذاب الاستئصال والعياذ بالله، كما وضح ذلك في قولـــه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ

لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥.

وهذا يعني أن ما يتوالى من الفتوح لهم على أثر ما يأتونه من الجرائر إنما هو نفسه نذير شر خطير لا يبقي ولا يذر، فكما أن ما يسبق تلك الفتوح من الشدائد المتنوعة هي نذر داعية إلى الاعتبار ممن وعاها فادكر وانثنى عن غيه، فما هي إلا صور ونماذج يريها الله عباده الغارقين في غفلتهم، السادرين في لهوهم، المستطيبين لفجورهم، ليعرفوا من تجربتهم معها بأس الله الشديد، وعذابه الذي لا يبقي ولا يذر إن لم يرعووا، فكذلك ما يعقبها مما يحسبونه عافية من البلاء وانحسارًا للمحن التي كابدوها هو نذير أكبر يؤذن باقتراب عذاب الاستئصال والعياذ بالله، وهذا مما وقع لكثير من الأمم التي ركبت رؤسها في العناد، ولم يصرفها عن غيها

صارف، ولم تثنها عن عتوها عظة، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وفرعون وآله، وقد فصل القول في هذا الأستاذ الشهيد سيد قطب حيث قال في الآيات:

«إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه. نموذج من الواقع التاريخي. نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء. فحقت عليهم كلمة الله. ونزل بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

ولقد عرف الواقع البشري كثيرًا من هذه الأمم، التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها، قبل أن يولد (التأريخ) الذي صنعه الإنسان! فالتأريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد، صغير السن، لا يكاد يعي إلا القليل من التأريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض! وهذا التأريخ الذي صنعه البشر حافل ـ على قصره ـ بالأكاذيب والأغاليط؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتأريخ البشري؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب، ولا يبدو منها إلا بعضها. وهذا البعض يخطئ البشر في جمعه، ويخطئون في تفسيره، ويخطئون أيضًا في تمييز صحيحه من زائفه ـ إلا قليلًا ـ ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتأريخ البشري علمًا، وأنه يملك تفسيره تفسيرًا (علميًا)، وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضًا.. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر! ومن عجب أن بعضهم يدعيها! والأشد

إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها! ولو قال ذلك المدعي: إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغًا.. ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري؟!

والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان. ويقص على عبيده ـ رحمة منه وفضلًا ـ جانبًا من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيرًا كاملًا صحيحًا. ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استنادًا إلى سنة الله التي لا تتبدل. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها.

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى. أمم جاءتهم رسلهم. فكذبوا. فأخذهم الله بالبأساء والضراء. في أموالهم وفي أنفسهم. في أحوالهم وأوضاعهم.. البأساء والضراء التي لا تبلغ أن

تكون (عذاب الله) الذي تحدثت عنه الآية السابقة، وهو عذاب التدمير والاستئصال.

وقد ذكر القرآن نموذجًا محددًا من هذه الأمم، ومن البأساء والضراء التي أخذها بها في قصة فرعون وملئه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣٣، وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية.

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن

يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء، ويفتح لهم أبواب الرحمة. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريًا أن يفعلوا. لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلين قلوبهم. وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد:

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة. والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حيًا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه. ومن كان ميتًا حسبت

عليه، ولم تفده شيئًا، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأمم التي يقص الله ـ سبحانه ـ من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أمته. لم تفد من الشدة شيئًا. لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد. وهنا يملي لها الله ـ سبحانه ـ ويستدرجها بالرخاء: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعصاة سواء. بهذه وبذاك سواء. والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيرًا. وفي الحديث: «**عجبًا للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد**

إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[1].

فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسل، والتي يقص الله من أنبائها هنا. إنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء.

والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان.. متدفقة كالسيول؛ بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة!

---

(١) أخرجه أحمد؛ **مسند أحمد**، (رقم: ١٨٨٣٦، ١٤/٣٢٣ ـ ٣٢٤)، ومسلم؛ **صحيح مسلم**، كتاب (٥٣) الزهد، باب (١٣) المؤمن أمره كله خير، (رقم: ٢٩٩٩، ص١١٩٦)، وابن حبان؛ **صحيح ابن حبان**، كتاب (١٠) الجنائز، باب (١) ما جاء في الصبر وثواب الأمراض، (رقم: ٢٨٩٦، ٧/١٥٥ ـ ١٥٦).

إنه مشـــهد عجيب؛ يرســـم حالة في حركة؛ على طريقة التصوير القرآني العجيب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ وغمرتهـــم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشـــيته وتقواه؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشـــهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المســـتغرقين فـــي اللهو والمتاع. وتبع ذلك فســـاد النظم والأوضاع، بعد فســـاد القلوب والأخلاق؛ وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها. عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل.

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. فـــكان أخذهـــم على غرة؛ وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء في النجاة عاجـــزون عن التفكير في أي اتجاه. وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم»[1].

(١) ســـيد قطب: **في ظلال القـــرآن**، ١٠٨٨/٢ ـ ١٠٩٠، دار الشـــروق ـ بيروت، ط٨: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

آيات من عذاب الله أصاب بعض الغربيين فيها موعظة وذكرى

كم هي الآيات التي تتراءى للناس وإن أغمضوا عنها أبصارهم وسدوا عن نذرها أسماعهم، ففي الماضي البعيد والغابر القريب من آيات الله تعالى ما تقوم به الحجة على كل عاتٍ ومشاقق، وكم عايش الغربيون من أحداث شاهدوها بأنفسهم وسطرتها أقلامهم وخلدتها أفلامهم، ومنها ما تناقله مؤرخوهم قرنًا بعد قرن، وقد كشف الله سبحانه وتعالى لهم من آثارها ما فيه عبرة وذكرى، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٦ ـ ٣٧.

وكفى عبرة حاضرة تسترعي انتباههم وتوقظهم من سباتهم قصة السفينة التي غرتهم بقوتها وزخرفها وسعتهاوتفننهم في صنعها وتصميمها، حتى تصوروا أن كل الاحتياطات من أخطار البحار متوفرة فيها،

وسموها (تيتانك) أي المارد، فإنها لم يمض على هلاكها وهلاك من فيها إلى وقتنا هذا إلا قرن وعقد من السنين، فقد أنشئت قبل الحرب العالمية الأولى، وقد بلغ غرورهم بها أن تناقلت صحفهم بالعناوين الكبيرة أنه ما من أحد هو قادر على إغراقها حتى الله سبحانه، وتفاءلوا بهذا الإنجاز الذي حققوه أنهم وصلوا به إلى إنهاء كوارث البحار إلى الأبد، وكم أثارت وسائل إعلامهم من ضجيج حولها، إذ كانت في وقتها أعظم سفينة هيئت لمخر عباب البحار.

وكانت لها ثلاث مزايا ـ فيما تصوروه ـ وهي كبر حجمها، وعدم قابليتها للغرق، والفخامة البالغة، هذا مع تزويدها بطاقم كبير من مهرة الربابنة والملاحين، وما كانوا يتصورون أن راكبها يعرض له أي خطر ما دام فيها.

وقد انطلقت لأول رحلة لها مبحرة نحو الولايات المتحدة الأمريكية من ميناء (كوين ستون) بإنجلترا

يوم الأربعاء ٢٢/ ربيع الثاني/ ١٣٣٠هـ ـ ١٠/ أبريل/ ١٩١٢م، واجتمعت الجماهير الحاشدة لمشاهدة أول رحلة تنطلق بها عابرة المحيط الأطلسي، وقد أخذ الغرور من نفوس ركابها كل مأخذ، فخيل إليهم أنهم قادرون على تحدي الله تعالى، وأنه آمنون على أنفسهم من بطشه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، إذ لم يمض عليها في رحلتها الهانئة الوادعة المريحة إلا أربعة أيام ـ وهي تعبر خطًّا ملاحيًّا مألوفًا منذ آلاف من السنين اعتادت السفن على قطعه من غير أن يعوقها عائق ـ، فإذا بالقدر المحتوم يبدد أحلامهم ويحطم غرورهم بأمر لم يكترثوا به ولم يشعروا بأي نذير لأي خطر كان، إذ كان البحر نفسه هادئًا مريحًا لا ينذرهم بما يقلق مجتازيه من هياج العواصف وتلاطم الأمواج، وإنما أحسوا باهتزاز يسير لها، لم يخطر ببالهم بسببه خوف ولا انزعاج، ولكن ما هي إلا عدة دقائق حتى أحاطت بهم نذر الهلاك، وتلاشت عندهم جميع الحيل والمهارات، فالتهمها البحر

الهادئ بمن فيها كما يلتهم الثعبان الضخم صغار فرائسه، وإذا بها خبر بعد عين، لا يسمع لمن فيها همس، ولا يرى لهم أثر، ولا توجد لها بقية، وإنما طواها القدر فيما قد طوى، لتكون أفخم السفن مظهرًا وأقصرها عمرًا **وأطولها خبرًا** وأعظمها معتبرًا.

أوليس في هذا ما يدعو إلى العظة والادكار، والإنابة إلى الله تعالى الذي يقول للشيء كن فيكون، يصرف الوجود كله بأسرع من طرفة عين، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ القمر: ٥٠ ـ ٥٣، فلا يعني هذا أن أولئك الهالكين ما عانوا إلا عذاب الأخذ السريع الذي أخذهم الله به، وإنما وراء ذلك حساب وجزاء على كل ما قدموا وأخروا.

وإذا كانت سفينة (تيتانك) عظة تخشع لها قلوب الذين آمنوا، وتقشعر منها جلودهم، وتلين بها

أحاسيسهم، فإن لها نظائر ونظائر فيما مر بالعالم الغربي من أحداث عظام، ناهيك بحادثة مدينة (بومباي) الإيطالية في القرن الأول الميلادي، تلك المدينة التي كانت مرتعًا للفساد ومركزًا للفسوق، ومقصدًا للفساق والمفسدين، يمارس كل منهم ما تهواه نفسه وما يعرض لهواه من غير أن يحسب حسابًا لقانون زاجر أو لوازع من العفة والحياء، أو لعذل عاذل من العقلاء، أو لمنقلب يلقى فيه جزاء ما قدم، وإنما كانوا متفننين في الفسوق وبارعين في ابتكار كل شاذ وعجيب منه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وكانت المدينة أنشئت في عام ٨٩ قبل الميلاد بنظام متطور جدًا، فكان مما اشتملت عليه مدرج في وسطه حلبة للمصارعة، وبركة للسباحة، وقناة وفرت المياه لأكثر من ٢٥ من نافورات الشوارع، وما لا يقل عن أربعة من الحمامات العامة، وعدد كبير من المنازل الخاصة، إلى غير ذلك من وسائل الترفيه

والراحة، وقد أتى عليها أمر الله تعالى حسب قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ القمر: ٥٠، فبادت وباد كل من فيها ببراكين أرسلها الله عليها في ٢٤/آب (أغسطس)/ عام ٧٩ لميلاد المسيح، ولم تبق البراكين من أهلها من أحد، ولم تدع فيها شيئًا إلا أهلكته، كريح عاد التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ الذاريات: ٤٢.

وقد أخذ أهلها وهم في لهوهم وغرورهم منهم من أخذ وهو في حال ممارسته الفجور، ومنهم من أخذ في حال معاقرة الخمور، ومن النساء من كن يرضعن أولادهن، وكل مقبل على ما هو عليه، وفي منتصف النهار فوجئ سكان المدينة بانفجار هائل تفلقت منها الصخور، وتعالى اللهب والغبار والأتربة في عمود نحو السماء ليسقط كل ذلك على رؤس السكان، وقد سحق كثير منهم تحت الصخور المتساقطة، وتحول كثير من السكان إلى جثث متحجرة عثر منها على نحو ٢٠٠٠ جسد، وبعدها بساعات وصلت الحمم

الملتهبة الزاحفة على أرض المدينة، فأنهت كل ما فيها من أشجار ومظاهر الحياة، ودفنت المدينة بأسرها ثلاثة أمتار تحت الحمم والأتربة والغبار، وانطمرت المدينة بكل ما فيها ومن فيها تحت ركام من الرماد لمدة ستة عشر قرنًا، ولما أراد الله تعالى أن يري عباده من آياته تم التنقيب عما تحت ذلك الركام، ليجد الناس تلك الجثث بحسب وضعها الذي كانت عليه عندما نزل عليها العذاب، ويشاهدوا كيف كان يمارس الفجور بدون أدنى قدر من الحياء، وقد حفظ الله تلك الأجسام كما هي لتكون عبرة لمن شاهدها، كما قال في فرعون: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ يونس: ٩٢.

وكانت الرسومات في المدينة جميعا تحكي ذلك الوضع المزري من الفساد والانحطاط، حتى أن الملك (فرنسيس الأول) عندما زارها من (نابولي) لحضور معرض بومباي في المتحف الوطني مع قرينته وابنته في عام ١٨١٩م صدم بما شاهده من هذه الرسومات

التي تخدش الحياء العام، وأمر بإدخالها في غرفة مغلقة عن العامة استحياء مما تعكسه من مظاهر الفساد، وظلت بعيدة عن أنظار الناس مستورة في تلك الغرفة التي لم تفتح إلا في عام ٢٠٠٦م حيث أصبح الناس هناك لا يعرفون للحياء معنى ولا يقيمون له وزنًا، بل لعلهم يتعلمون منها دروسًا في أنواع الفجور والتفنن فيها.

وقد أصبحت المدينة متحفًا سياحيًا يؤمه الناس من كل مكان، وليس تاريخها خافيا على أمم الغرب اليوم، ولكن هل أخذوا منه عبرة نافعة وذكرى زاجرة، لينثنوا عن غيهم، أو أن ذلك زاد شهواتهم سعارا فلم يلتفتوا إلى ما فيها من الذكرى؟ إذ سلبت منهم الخشية، وقد قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ الأعلى: ١٠ ـ ١١، وقال: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ يونس: ١٠١.

ويا ترى هل الذين يعدون اليوم الشذوذ الجنسي مظهرًا حضاريًا وتشريعه إنجازًا مهمًا يفاخرون به هم

في مأمن من هذه العاقبة؟، كلا؛ فإن الله سبحانه عندما ذكر قوم لـــوط وإمطارهم حجارة من ســـجيل منضود قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود: ٨٣.

وإذا كان أولئك عموا عن كل شيء ونسوا كل عهد بتأثير الشهوات عليهم، وقست قلوبهم كالصم الصلاد فلم تعد العظات تتخللها، ولا العبر تحركها، فالعجب من أمة الإسلام التي أوتيت القرآن فيه تبيان كل شيء ويتلى بينها غدوًا وعشيًا كيف تنساق وراء أولئك غير مبالية بمصيرهـــا، ولا مفكرة في مســـيرها، فقد كان عليها على الأقـــل أن ترفـــع عقيرتها مســـتنكرة هذا الفســـاد، محذرة من عواقبـــه الوخيمـــة، مبينة للناس جميعا ما يترتب عليه من شـــر الدنيـــا والآخرة، وأنه مصادم للفطرة التي فطر الله تعالى بها مخلوقاته، وأن الاسترســـال فيه مفـــضٍ إلـــى انقضاء حيـــاة الجنس البشري، والوجود الإنساني في هذه الأرض، فإن هذه مســـؤلية هذه الأمة وهي مناط نجاتها وســـلامتها، إذ الساكت عن المنكر يهلك مع مرتكبيه، كما بينه قول

الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦.

وإذ كان هذا كله في العدوان على حرمات السبت بالاحتيال على صيد الحيتان فيه، فكيف بهذا الجرم الكبير والفاحشة العظيمة.

وفي الختام لا يفوتني أن أهيب بأصحاب العقول المستنيرة والضمائر الحية في المجتمع الإنساني كله شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، الذين لا تهون عليهم فطرهم أن يدوسوها بالأحذية، ولا أخلاقهم أن يبيدوها

بالفساد، والذين لا تزال فيهم بقية من عقل تبعثهم على التفكير في مستقبل الجنس البشري جميعًا، أهيب بهم وأدعوهم إلى أن يملأوا الدنيا استنكارًا لهذا الأمر، إذ الدنيا لا تخلو من واعٍ مستبصر في كل زمان ومكان، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد: ٧.

ولا تزال هناك أصوات تنادي بحفظ الكرامة الإنسانية وإن كانت خافتة بين ضجيج الفساد وصخب السفهاء الذي ملأ الأرض، فاختفى بينه صوت الصلاح والإصلاح، وثَمّ أمثلة حية في اليقظة والتفطن لسوء عاقبة سقوط الأخلاق وفساد الطباع، كما نادى بذلك صاحب كتاب **موت الغرب** (باتريك جيه بوكانن) الذي خبر الحياة بتجاربه الطويلة فقد كان مستشارًا لثلاثة من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، ومما تضمنه كتابه هذا ما ملخصه:

«يعرف الموت الذي يلوح في أفق الغرب بأنه في الواقع موتان: موت أخلاقي: بسبب السقوط الأخلاقي

الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية، وموت ديموغرافي وبيولجي (النقص السكاني بالموت الطبيعي): ويظهر بوضوح في العائلة وفي السجلات الحكومية التي تشير إلى اضمحلال القوى البشرية في الغرب، وإصابة ما تبقى منها بشيخوخة لا شفاء منها إلا باستقدام المزيد من المهاجرين الشبان أو بالقيام بثورة حضارية مضادة تعيد القيم الدينية والأخلاقية إلى مكانتها التي كانت من قبل.

ويقول: إن الموت المقبل مريع و مخيف!! لأنه وباء ومرض من صنع أيدينا ومن صناعة أفكارنا وليس بسبب خارجي مما يجعل هذا الموت أسوأ بكثير من الوباء الأسود الذي قتل ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر. والقصة عنده ليست مجرد تخمينات أو توقعات أو احتمالات إنما هي حقيقة واقعة تصدمك لشدة وضوحها خاصة عندما تبدأ الأرقام بالحديث!!.

وفقا للإحصاءات الحديثة: هبط (معدل الخصوبة) عند المرأة الأوروبية إلى طفل واحد لكل امرأة، علمًا أن الحاجة تدعو إلى معدل طفلين كحد أدنى لتعويض وفيات السكان الموجودين الآن دون الحديث عن زيادة عددهم، فإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية على ما هي عليه فإن سكان أوروبا البالغ عددهم ٧٢٨ مليون نسمة بحسب إحصاء عام ٢٠٠٠م سيتقلصون إلى ٢٠٧ ملايين في نهاية هذا القرن، يعنى الى أقل من الثلث.

لكن السؤال المحير: لماذا توقفت أمم أوروبا وشعوبها عن إنجاب الأطفال وبدأت تتقبل فكرة اختفائها عن هذه الأرض بمثل هذه اللامبالاة؟! يقول المؤلف: إن الجواب يكمن في النتائج المميتة لهذه الثقافة الجديدة في الغرب!! والموت الأخلاقي الذي جرته هذه الثقافة على الغربيين هذا هو الذي صنع موتهم البيولوجي. وانهيار القيمة الأساسية الأولى في المجتمع (وهي الأسرة)، وانحسار الأعراف الأخلاقية الدينية التي كانت فيما مضى تشكل سدًا في وجه

(منع الحمل والإجهاض والعلاقات الجنسية خارج إطار المؤسسة الزوجية وغير ذلك)، إضافة إلى تبرير بل تشجيع العلاقات الشاذة المنحرفة بين أبناء الجنس الواحد، كل هذا دمر بشكل تدريجي الخلية المركزية للمجتمع وأساس استمرار الأسرة، وتبدو لغة الأرقام هنا أكثر هولًا!! فقد ارتفع الرقم السنوي لعمليات الإجهاض في الولايات المتحدة من ٦,٠٠٠ حالة سنويا عام ١٩٦٦م إلى ٦٠٠,٠٠٠ حالة في عام ١٩٧٦م بعد أن سمح بالإجهاض، واعتبرت عملية قتل الأجنة حقا للمرأة يحميه الدستور، وبعد عشر سنوات (١٩٨٦م) وصل الرقم إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ إجهاض في العام الواحد. أما نسبة الأطفال غير الشرعيين فهي تبلغ اليوم ٢٥٪ من العدد الإجمالي للأطفال الأمريكيين، ويعيش ثلث أطفال أمريكا في منازل دون أحد الأبوين، إما بدون الأب وهو الغالب، وإما بدون الأم.

وهناك مؤشر آخر خطير جدًا، فقد بلغ عدد حالات الانتحار بين المراهقين الأمريكيين ثلاثة أضعاف

ما كانت عليه عام ١٩٦٠م. أما عدد مدمني المخدرات (المدمنين وليس المتعاطين) بلغ أكثر من ٦,٠٠٠,٠٠٠ شخص في الولايات المتحدة وحدها.

وقد تناقص عدد الشبان والشابات الراغبين في الزواج طبعا في مجتمع يسمح (بالحرية الجنسية الكاملة) ويتيح المساكنة بين الرجل والمرأة دون أي رابط شرعي أو قانوني في بيت واحد، مع خوف الرجل من قانون الأحوال الشخصية الظالم الذي تأخذ الزوجة بموجبه نصف ثروته في حالة الطلاق، واضطرار المرأة للقبول بالمساكنة بدون زواج بسبب حاجتها إلى رجل يقف معها ويحميها ناهيك عن الحاجة البيوليجية.

أما قضية الشذوذ الجنسي وقانون الزواج بين أبناء (الجنس الواحد) فحدث ولا حرج، فقد بلغت حدًا لم يكن ممكنًا مجرد تخيله في السابق!!»اهـ[1].

(١) ينظر هذا التلخيص من موقع معرفة، لخصه ناصر علي:
https://www.marefa.org/

هــذا؛ ولا يفوتني أن أذكِّر أمة الإســلام مرة أخرى بأنها أمة شاهدة على الأمم، ويجب أن تكون أكثر شفقة وأعظم برا بجميع الناس، وذلك بمحاولة انتشالهم من هذا الفساد، وردهم عن هذا الانحراف، وإيقاظ هاجس الفطرة في نفوسهم، فإن اســتجابوا لذلك تحقق الخير المرجو، وإن لم يســتجيبوا كانت الأمة المسلمة بذلك برأت ساحتها وأدت ما عليها من التذكير، على أن من بشــائر الخير أن نســمع من بعض الغربيين أنفســهم ما يدل على اشــمئزازهم من هذه الأوضــاع المتدنية، ورغبتهم في العودة إلى القيم التي تحفظهم من الهلكة، وتحميهم من ســوء العواقــب، والله المســتعان وعليه المعول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم على ســيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

الموالح ـ ٣٠ /ذي الحجة/١٤٤٢هـ